

العارف بالله
سَيِّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّشْتَرِي
حَيَاتُهُ وَآرَاؤُهُ

لفضيلة الإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود

المكتبة العصرية
بيروت
تلفون ٢٣٧٥٤٥ - ص.ب ٨٣٥٥

الله

جَلَّ جَلَالُهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا
وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات
الله ذلك هو الفوز العظيم » (سورة يونس ٦٢ - ٦٤)
وقال جل شأنه :

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا
(صدق الله العظيم)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين :

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين * سبحانه لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .
سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

سبحانك لا مهدي إلا من هديته ، وأنت تباركت ربنا وتعاليت القائل في الحديث القدسي :

« يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » .
لقد خلقت الخلق ويسرته للضرب في الحياة ، وذلت الكون لهم ، يمشوا في مناكبه سعيًا وراء قوتهم المادي ، وتركتم لهم اختيار الوسيلة الحلال لذلك .

أما الهداية الروحية للفرد وللأسرة وللمجتمع ، فقد أرسلت لهم رسلاً مبشرين ومنذرين يهدونهم في العقيدة ، وفي الأخلاق ، وفي التشريع . وفي نظام المجتمع إلى طريق الحق والرشاد : الطريق المعصوم الذي رسمه الحكيم الخبير .

وتوالت الرسل يخلف بعضها بعضا ، وذلك أن البشر كانت تتغلب عليهم أهوائهم ونزعاتهم ، فيحيدون عن الرسالة إلى غرائز غلبة ، وأهواء ضالة . .

إلى أن أذنت سبحانهك بإرسال ما كان ينقض العالم : الإنسان الكامل .

الإنسان الكامل في روحانيته ، الإنسان الكامل في خلقه ، وكان بذلك إنسانا كاملا في مادته التي استجابت إلى الروحانية والأخلاق فكان الإنسان الكامل روحا ومادة ، وأرسلت معه الكتاب الذي انتهت إليه الكمالات :

أنزلته سبحانهك في ليلة مباركة مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه . يهدى للتي هي أقوم . عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مبارك : ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب . أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : أحكمت من حكيم ، وفصلت من خبير .

تنزيل من الرحمن الرحيم ، تنزيل من حكيم حميد ، وأنه هدى ورحمة للمؤمنين . هو للذين آمنوا هدى وشفاء مجيد ، في لوح محفوظ . ويقول عنه رسول الله ﷺ : فيما رواه الترمذى عن سيدنا على رضى الله عنه :

« ستكون قن كقطع الليل المظلم ، قلت يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال :

كتاب الله مبارك تعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ،

وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا تشيع منه العلماء ، ولا يملكه الأثقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .
والمسلمون يؤمنون بذلك ، ويؤمنون بقوله تعالى :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » ^(١)
ويؤمنون بقوله تعالى :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون » ^(٢)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون » ^(٣)

« ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون » ^(٤)

ومع ذلك فإن إيمانهم هنا كان كلاما ، مجرد كلام ، لم يطبقوه في حياتهم ، ولم يأخذوا به في سلوكهم ، مع علمهم أن المسلمين حينما استمسكوا به سادوا ، وحينما طبقوه دانت لهم الدنيا :
تسير سحابة فوق رأس الخليفة فيقول لها :

(٣) المائدة : ٤٥ .

(٤) المائدة : ٤٧ .

(١) النساء : ٦٥ .

(٢) المائدة : ٤٤ .

سيرى أنى شئت ، وامطرى حيث شئت ، فسيأتينى خراجك .
ولكن الغرب نجح فى أن يجعل بين المسلمين والقرآن حجاباً من
الثقافة الغربية : الثقافة الفكرية البشرية ، الثقافة التى تتغير وتتبدل فى
كل حين .

الثقافة التى تخطىء نفسها فى كل عام ، والتى تختزع اليوم ما ترفضه
فى الغد ، وتعود فى الغد إلى ما رفضه بالأمس ، وتضنى عليه ثوباً من
الجدة المزيفة ليلى بعد لحظات .

وما من شك فى أن كل من يقرأ تاريخ الثقافة الغربية منذ سقراط
وأفلاطون وأرسطو إلى الآن يجد الأمر كما وصفنا .
ويجد أن هذه الثقافة باعتبار أساسها ، وباعتبار موضوعها تسير
بالإنسانية نحو الهاوية .

إن أساس ثقافة الغرب لا يتسم بالأخلاق ، ولا يتسم بطابع
الفضيلة ، وإنما يدرس الأخلاق على أنها عادات ، والفضيلة على أنها
اصطلاح اجتماعى ، ومن هنا كانت ثمار ذلك الانحدار الجارف نحو
التحلل من كل القيم الأخلاقية ، ومن مكارم الأخلاق .

ومن وراء كل ذلك اليهود ، تشكيكا فى العقائد ، وتشكيكا فى
القيم الأخلاقية ، وإشادة بالكثير من الرذائل : يتمسحون فى « الحرية »
وكأنها المبرر السحري الذى يشفع لكل انحراف .

واليهود حينما يسرون بالبشرية نحو الانحدار ، إنما يسرون حسب
منهج مخطط محكم ، وهو النزول بالإنسانية إلى مستوى يجعلها لا قيمة
لها . . .

وحينئذ يسود اليهود ، ويملكون وسيطرون .
ولقد استجاب الغرب لليهود وهو الآن في طريق الانحدار : خمر ،
ونساء ، وفضائح ، وقنابل ذرية ، ووابل من الميكروبات والأوبئة :
مكندس مخزون للاستعمال حينما تفقد البشرية رشدها ، وتقوم الحروب
المدمرة ، والعباذ بالله .

لقد استجاب الغرب لمكر اليهود وخداعهم ، وأخذ في الانحدار .
ولقد فلسف الغرب الأساس الذي يقوم عليه الانحدار :
وعنون الفكر اليهودي الأسس المزيفة لهذا الانحدار في كلمات :
الحرية ، والعلم للعلم ، الأدب للأدب .
وتحت شعار الحرية يمكنك أن تقول ما شئت ، وأن تفعل
ما شئت ، خصوصا في العرى والجنس .

وتحت شعار العلم للعلم لا يكون من شأن العلم أن يسير لأهداف من
الفضيلة وتحت شعار الأدب للأدب تكون الإشادة بكل ما يتنافى مع
الأخلاق : مباحة ، ما دامت في ثوب الأدب وتحت شعار الأدب
للأدب . ومن ذلك الأدب المكشوف ، ومسرحيات الترفيه ، على أي
وضع ، وفي أية صورة .

لقد استجاب الغرب للخبث اليهودي ، وإذا كان الغرب يستمتع
الآن بالقوة والسيطرة فإن ثقافته النظرية الحالية تحمل في نفسها عوامل
الفناء .

* * *

ونحن في عالمنا الإسلامي ما زلنا نقاوم ، وإذا كان الغرب قد فقد

الشعور بالضمير الأخلاقى فى عالم الجنس والعرى والمرأة ، فإزال
المسلمون يشعرون بأن ذلك رذيلة .

يبد أن مقاومة التيار اليهودى فى عالمنا الإسلامى ليس من السهولة
بمكان ، ولا مناص من تكاتف العاملين للخير ، المناهضين للإلحاد ،
القائمين فى وجه الرذيلة حتى يتمكنوا من صد التيار - إذا قدر لهم
ذلك - الذى يأتى فى صورة الأفلام الخليعة والمسرحيات الماجنة وعن
طريق الإذاعة ، وعن طريق التلفزيون ، وعن طريق كتب الجنس ،
وعن طريق المجلات التى تصدر خصيصا للدعوة للرذيلة بأموال اليهود ،
وبأقلام اليهود سافرة أو مستخفية .

لابد من أن يكاتف العاملون للخير ، لابد من تكاتفهم حتى ولو لم
يكن الأمل كبير فى ثمرة مجهودهم .

فلقد سبقهم فى مجال الهداية قوم تحدث عنهم القرآن ، وأبان أنهم
لم يئأسوا من هداية الآخرين مع علمهم بأن الله مهلكهم . . .
وعسى . . . وعسى أن يتقوا ، يقول سبحانه :

« وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا
شديدا »

قالوا : معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون .

فلما نسوا ما ذكروا به ، أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا
الذين ظلموا بمعذاب بئيس بما كانوا يفسقون » (١)

وفى هذه الآيات الكريمة يبين الله سبحانه أنه لا يأس فى مجال

(١) الأعراف ١٦٤ ، ١٦٥ .

الدعوة ، وأنه سبحانه يكافئ الدعاء بمكافأة كريمة هي : النجاة ، إنه سبحانه يكلؤهم بعنايته فينجيهم من العذاب .

* * *

وهذا الكتاب حلقة جديدة تساهم - مع ما سبق أن كتبنا - في مقاومة تيار التحلل وتيار الرذيلة .

والشخصية التي كتبنا عنها شخصية من الشخصيات الخالدة : إن سهل بن عبد الله التستري كان وما يزال ولن يزال مصدر إشعاع روحي بما رسم من :

١ - طريق المعراج إلى الله سبحانه .

٢ - وينضاله لنصرة أهل السنة .

٣ - وبما كتبه مؤيداً طريق الأتباع والافتداء برسول الله ﷺ .

٤ - ولقد اتصل بالقرآن عن قرب وتأمله في تدبر فألهمه الله هذه

الإشارات النفسية التي استحضنا في ذكرها في نهاية هذا الكتاب :-

ونرجو الله سبحانه أن يهدي لهذا الكتاب وأن يهدي به ، وأن

يشرح له صدوراً ويشرح به صدوراً ، إنه سميع قريب مجيب ،

المؤلف

الباب الأول حياته

إن لله في كل عصر عبادة قد تحققوا بالعبودية ، واستجابوا لله ،
سبحانه ، في قوله تعالى :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

وها هو الشيخ الجليل : محمد بن سوار ، قائم في جنح من الليل ،
يتبتل إلى الله ، ويتضرع إليه ، ومناجيه سبحانه .

وها هو ذا قائم يصلي في خشوع ، ويدعو في خضوع العبد الملتجئ
إلى مالك الملك ذي الجلال والإكرام .

إنه يشعر بسعادة لاحد لها في خلوته هذه ، مناجيا ومتفكرا
ومتأملا :

لقد رضى عن الله ، فرضى الله عنه ، فشر بسحاب الرحمة
تفيض عليه من الملاء الأعلى ، من خزائن رحمة الله التي لا تنفذ ،
ويستغرق الشيخ وتغمره البهجة . . . ويرى هذا المنظر ، سهل بن علي
التستري ، وهو غلام صغير فيروقه ويعجبه ، ويملاً قلبه سكينه وهدوءه
وطمأنينة ، فيلازم خاله .

يقول سهل ، فيما يرويه القشيري : « كنت ابن ثلاث سنين ،
وكنت أقوم الليل أنظر إني صلاة خالي : محمد بن سوار ، وكان يقوم
الليل »

ويشفق الشيخ على الغلام أن يصيبه برد ، أو أن يكون عدم النوم سبباً في ضعفه ، ويشغل ذلك قلبه : رحمة بالغلام وشفقة عليه ، فيناديه أحياناً : يا سهيل : إذ ذهب فتم فقد شغلت قلبي ، . . .

ويحاول الغلام الاستمرار إرضاءً لرغبته ، ويحاول الذهاب إلى النوم إرضاءً لخاله . . . ، ويتأرجح بين هذا وذاك ، وتتغلب الرغبة أحياناً . وأحياناً تتغلب إطاعة خاله ، ولكن الأيام تمر ، والغلام يحضر خلوة خاله ، ويألف خاله وجوده بجواره ، ويألف الغلام ملازمة خاله في تهجده وعبادته ، ويتولد بينهما ود من نوع آخر غير ود القرابة والدم ، يتولد بينهما ود روحي عميق - على الرغم من فارق السن - وما كانت الصلة الروحية في يوم من الأيام تتوقف على التعادل أو التقارب في السن .

وبدأ هذا الود الروحي يتبلور في يوم من الأيام حيناً قال الخال : يا سهيل ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ !

وأحس الغلام فجأة بالغبطة تملأ جوانحه ، وبالسعادة تشق طريقها إلى قلبه : ها هو ذا خاله ينظر إليه نظرة تقدير ، إنه أصبح في نظر خاله أهل لأن يؤجّه ، وأن يوضع على الطريق الذي يسير فيه خاله : هل يتأتى في يوم من الأيام أن يسير في الحياة على غرار خاله ، وأن يتأجى هنا الإله الذي يتأجيه خاله ، وأن يتكشف له السر الغامض الذي يجذب خاله في سجدة الليل ، ويستشله من لذيد الرقاد ، ليقف عبداً مبتلاً ؟ !

وتملأ الآمال الغامضة ، والسعادة الطارقة قلب الغلام ، وتأخذه

الحيرة واللهفة على ألا تمر الفرصة ، فيسأل في غير تردد ولا فتور سؤال
مستجيب راض مغتبط : كيف أذكره ؟

ويجيب الخال : قل بقلبك ، عند تقلبك في ثيابك ، ثلاث مرات
من غير أن تحرك به لسانك : « الله معي - الله ناظر إلى ، الله
شاهدي »

ويقول سهل هذا الورد ثلاث ليال بالدقة التي أرادها خاله ،
ويتحدث عن نفسه فيقول : « ثم أعلمته » . فقال لى :

قل في كل ليلة سبع مرات
فقلت ذلك ، ثم أعلمته . فقال لى :

قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة
فقلت ذلك ، فوقع في قلبي حلاوة
فلما كان بعد سنة ، قال لى خالى :

احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر : فإنه ينفعك في
الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة في
سرى ثم قال لى خالى يوما :

يا سهل ، من كان الله معه ، وهو ناظر إليه ، وشاهده ، أيعصيه ؟
إياك والمعصية .
فكنت أدخلو . .

لقد كان في سن مبكرة ، يخلو متعبدا ، متهجدا ، ذاكرا
لقد ذاق حلاوة الذكر بهذا الورد الخالد الذى عرف فيما بعد بورد
سهل ، وذاق حلاوة الأذكار الماثورة ، وذاق حلاوة الخلوة على وجه العموم .

ولكن الزمن يمر ، وها هو ذا الغلام قد بلغ السن الذى يذهب فيه أقرانه إلى الكتّاب . . ولابد - والتقاليد تقضى بذلك - من أن يذهب إلى الكتّاب ليحفظ القرآن وليفقه شيئا من معانيه . ولكن سهلا ، لا يأخذ الأمر بالسهولة ، التى يأخذ بها الغلمان ، ولا بالعبطة التى تكون شعورهم فيما يستقبلونه من حياة جديدة : إنه يتردد ، ويتباطأ ، ويخشى .

يخشى ماذا ؟ وماذا فى الذهاب إلى الكتّاب من ضير ؟ إنه يصارح أهله ، ويعلن خشيته سافرة لا لبس فيها ، ويشترط شروطا إذا تحتم أمر الذهاب إلى الكتّاب فيقول : إني لأخشى أن يتفرق على هوى ، ولكن شارطوا المعلم أنى أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع .

لقد ألف الخلوة ، فيها يتجمع الذهن ، وفيها يتركز الفكر فى المذكور ، وفيها يجد للذكر لذة ، ويجد للصدر إنشراحا . . فإن كان لابد من الكتاب فليكن على نسق يجمع الخير من أطرافه . ليكن للكتاب ساعة وللخلوة الباقي .

ودخل فى الخلوة عنصر جديد : هو الذكر بالقرآن ، ويجد سهل فى القرآن النور ، ويجد فى القرآن الهداية ، فيجد فى حفظه وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين . ولم يترك فى هذه الاثناء ورده الخالد : الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى كما لم يتركه طيل حياته . لقد كان هذا الورد شعاره حتى ليقول ابن أبى ساعدة .

كان الجالس إلى سهل يكاد يسمع دقات قلبه كلمات ورده .
وعن هذا الورد ، يقول صاحب الكواكب النرية :
وهو ورد عظيم الشأن ، جربه أهل العرفان ، فكان التريان الفاجع
دائما ويقول الشيخ الأكبر ابن عربي في فتوحاته عن هذا الورد .
دخلت الخلوة بورد سهل ، ففتح لي به في ليلة واحدة وفيه أسرار
عجيبة ، وأذواق غريبة :
ومن أكثر من ذكره حبيب له الطاعات ، وبغضت إليه المنكرات ومن
ذكره كل ليلة سبع مرات ، وهو في فراشه ، وجد له حلاوة في سره .
ويذكر المناوي في الكواكب النرية عن هذا الورد :
« قال بعضهم ، ومن تعلق به لم يعجزه شيء من الموجودات » :

إن رياضة سهل للآن : ذكر وقرآن ، فضلا عن العبادة المفروضة والسنن المطلوبة - بيد أن عنصرا جديدا دخلها ، لم يكن جديدا في نوعه ، وإنما كان جديدا في استمراره ودوامه : ذلك هو الصيام ، لقد أخذ سهل في الصيام ، لقد أخذ في صيام الدهر ، وهو لم يبلغ بعد العاشرة .

أما قوته في هذه الفترة ، وأما إفطاره ، فإنه خبز وشعير ، ولقد تكيف جسمه بالجوع حتى ليروى أنه كان يصح إذا جاع ، ويمرض إذا شبع ، وإن من كان قوته الذكر ، وغذاؤه النور ، فإن القليل من القوت المادى يكتفى : لقد كان يعيش في الأغلب الأعم من حياته على الماء وخبز الشعير .

واستمر سهل في حياته رتيبة : ذكر ، وعبادة ، وصوم إلى أن بلغ الثالثة عشرة من عمره .

وفي هذه السن كان الأمر الهائل في حياة سهل ، لقد حدثت له مسألة أذهلته : مسألة لم يدر لها تعليلا ، ولم يفهم لها تفسيرا ، لقد حيرته ، فسأل أهله أن يعيشوه إلى البصرة ، عله يجد عند أحد من عارفها تفسيرا أو شرحا وتوضيحا : يقول سهل :

« فبحثت البصرة ، وسألت علماءها ، فلم يشف أحد منهم عنى

شيئا « وتملك الحيرة سهلا ، فيغادر البصرة إلى عبادان .
يقول سهل :

« فخرجت إلى عبادان ، إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة
بن عبد الله العباداني : فسألته عنها ، فأجابني .
وأقت عنده مدة أنتفع بكلامه ، وأتأدب بآدابه .
هذه المسألة يتحدث عنها الشيخ الأكبر : فيقول :
كان بدء سهل في هذا الطريق « سجود القلب »

وكم من ولي كبير الشأن ، طويل العمر ، مات وما حصل له سجود
القلب . ولا علم أن للقلب سجودا مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه
فيها ، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه أبدا من سجودته فهو ثابت
على تلك القدم الواحدة التي تنفرع منها أقدام كثيرة .

وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال ، ولهذا سمي :
قلبا وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله ، فن عين واحدة هو عليها
ثابت يعبر عنها بسجود القلب .

ولهذا لما رأى في ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد ، وانتظر أن
يرفع فلم يرفع فبقي حائرا ، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته ،
فما وجد أحدا يعرفها ، فإنهم أهل صدق ، ولا ينطقون إلا عند ذوق
محقق .

قيل له : إن في « عبادان » شيئا معتبرا لو رحلت إليه ؟ ففعل ،
فقال له أيها الشيخ أيسجد القلب ؟ فقال : إلى الأبد

فوجد شفاء عنده ، فلزم خدمته ، فآله تعالى ، يؤتى ما شاء من علمه من يشاء من عباده : «
 « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده »
 ويحدد الشيخ الأكبر مقام سهل رضى الله عنه بأنه السجود .
 فيقول :

مقام سهل سجود القلب ليس له
 فى غير سهل من الأركان أحكام
 لا يرفع القلب رأساً بعد سجده
 والوجه يرفع والتغير إعلام
 فإنه غير مشهود بقبائنه
 وقبله القلب أسماء وأعلام
 تبدى حقيقته تأييد سجده
 وماله فى علوم الخلق أقدام
 وهذه الحالة تسمى . فيما يروى الشيخ الأكبر ، منزلة التمكين ،
 وتسمى : منزل العصمة .

وعاد سهل إلى تستر : عاد ليستمر في الاتجاه الكامل إلى الله ،
وعاد ليتابع طريقه في العبادة والذكر والصيام .
لقد عاد مطمئنا : أن قلبه ساجد ، وكيانه كله خاضع ، لقد
أصبح سجودا وخشية وتواضعا لله ، سبحانه .

ووجد للصيام نورا فواصل وطوى اليومين والثلاثة وطوى أكثر من
ذلك ، وفي كل يوم كان يزداد نورا على نور

واستمر على ذلك عشرين سنة ثم

يقول سهل : ثم خرجت أسير في الأرض سنين .

وكانت السياحة في ذلك الزمن من الأمور الجوهرية بالنسبة لرجال
العلم وبالنسبة لرجال الطريق ، وسواء كنا بصدد هؤلاء أو أولئك فإن
السياحة بالنسبة لهم إنما هي سياحة دينية يريدون بها وجه الله ، ويتغنون
بها مرضاته :

أما ضرورة السياحة بالنسبة لرجال العلم فذلك أن الأقطار
الإسلامية توزعت الاختصاصات المتخصصة ، فأكبر علماء الفقه مثلا
في مصر ، وأكبر علماء التوحيد مثلا في الحرم المكي وهكذا .
وكان العالم يسافر ليتلقى العلم على المتخصص ، ثم يسافر ليتلقى على
متخصص آخر في علم آخر وهكذا . . . بل كان العالم يسافر ليصحح

حديثا واحدا ، أو بضعة أحاديث .

وما كان الهدف في كل ذلك إلا ضبط العلم وتحرى الصحة في الآثار وكانوا يضعون ذلك في قائمة ما يتقرب به العالم إلى الله ، سبحانه وتعالى . هذا نوع .

أما النوع الثاني من السياحة : فإنه كان سياحة تبتل وتحنث : إن الشخص في أهله وذويه مشغول بهم ، مشغولون به ، إن أفكاره موزعة ، وإن آراءه مشتتة : متى يخلو إلى الله ؟ ومتى يكون في جو من الانطلاق نحو الملاء الأعلى لا يحول دون ذلك مال ولا ولد ؟ متى يأتي له طلب الحق . خالي الفكر ، صافي الذهن ؟

إن كل ذلك يتاح له بالسياحة ، والسياحة المتجردة

ولقد كان الصوفية يسيحون عبادة ، ويسبحون استزادة من أنوار قوم فتربوا من ربهم وسبقوا في السفر إليه ، ويسبحون استرشاداً في الطريق وطلباً للبركة ، ويسبحون للتأثير الروحي بالجلوس إلى أرباب المقامات العالية ، والمنازل السامية .

وبعض الناس يسيح طلباً للملذات ، وبعضهم يسيح طلباً للمشاهدة أماكن مادية لم يشاهدها من قبل ، وبعض الناس يأخذ أجازة في الصيف - كل صيف - ليكشف عورته على شاطئ البحر ، ويرضى بأن تكشف ابنته وزوجته عورتهما على الشاطئ أيضاً ، تحت الأنظار - ككل الأنظار - التي لا تتورع عن الإثم ولا عن النظر الفاسق .
أما أسلافنا ، رضى الله عنهم ، فقد كانت أسفارهم سياحة في

طلب الحق علماً ، وسياحة في طلب الحق عبادة ، إنها كانت سياحة إلى الله .

وقد كانت سياحة سهل رضى الله عنه سياحة علم ، وسياحة عبادة
لقد كان عالماً عابداً ، فكانت هجرته إلى الله ورسوله .
وبعد هذه السياحة رجع إلى « تستر » .

رجع إليها على نور من ربه ، يدعو إلى الله على بصيرة
ولم يبدأ سهل في الدعوة إلى الله إلا بعد أن أذن الله له
روى صاحب كتاب : « صفة الأولياء ومراتب الأصفياء »
بإسناده ، قال :

« ذكر سهل التستري وهو ابن ثلاث سنين
وصام وهو ابن خمس سنين
وترك الشهوات وهو ابن سبع سنين
وساح في طلب العلم وهو ابن تسع سنين
وكانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها
إلا عنده وهو ابن أحد عشر سنة
وحينئذ ظهرت عليه الكرامات . . .

وما من شك في أننا لا نكاد نعلم شيئاً عن حياة سهل الشخصية
ولكننا أخذنا نتلمس في المصادر من الأخبار القليلة النادرة ما قد يلتقي
بعض الضوء على حياته ، نذكر من ذلك ما يلي :

يقول سهل : « لي أربعون سنة تكلم الله والناس يظنون أني أكلهم »
ويقول جامع تفسير سهل :

« وصلى « سهل » صلاة العتمة فقرأ قوله تعالى : « وسقاهم ربهم

شرباً طهوراً» فجعل يحرك فاه كأنه يمص شيئاً ، فلما فرغ من صلاته ،
قيل له : أنتشرب في الصلاة ؟
فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كأتى عند شربه ما فعلت
ذلك

وسئل عن قوله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » فقال :
هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى ، وفيها اسم الله الأعظم ، وهو
مكتوب بالنور الأخضر في السماء سطرأ واحداً من المشرق إلى المغرب
كنت رأيته كذلك في ليلة القدر مكتوباً وأنا بعبادان :
لا إله إلا هو الحى القيوم » انتهى
ومن الطرائف التى تروى عنه أنه :

« كان يداوى الناس ، ولا يداوى نفسه من الأمراض ، فعوتب
فيه ، فقال : « ضربة الحبيب لا تؤلم »
ويقول المؤرخون عن سهل :

كان يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم في كل جمعة مرة كيلا يضعفوا
عن العبادة ، وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوى . وكان يعرق في
البرد الشديد في الشتاء وعليه قيص واحد ومما يروى عنه من الغرائب .
أو الطرائف :

قال سهل : « وإنى لأعرف رجلاً من أولياء الله تعالى اجتاز برجل
مصلوب وجهه إلى غير القبلة ، فقال :
أين ذلك اللسان الذى كنت تقول به صادقاً : « لا إله إلا الله » ؟
فم قال : اللهم هب لى ذنبه .

قال سهل : فاستدار له نحو القبلة بقدره الله انتهى
وقال : اجتمعت برجل من أصحاب المسيح عليه الصلاة
والسلام ، فرأيت عليه جبة صوف فيها طوارة ؛ وقال لهذه من أيام
المسيح عليه السلام سبعائة سنة ، فعجبت .
فقال : الأبدال لا تخلق ثيابهم ، وإنما يخلقها راحمة الذنوب
ومطاعم السحت ، ولذلك قيل : إن للخضر عليه السلام إزار ورداء
لا يبلان ولا يخلقان»

ويبلغ من أمره في تقدير الناس أن قيل له :

لقد آتاك الله الحكمة ؟ فقال :

قد أوتيت إن شاء الله الحكمة وغيبا علمت من غيب سره ، فأغنانى
عن علم ما سواه ، وأن إلى ربك المنتهى ، وبإتمام ما بدأنى به من فضله
وإحسانه .

وألّف سهل كتباً ، يقول صاحب الكواكب :

«وله تصانيف نفيسة منها : رقائق الحين ومواعظ العارفين ،

وجوابات أهل البقين ، وغير ذلك .

وفي آخر أيام سهل ، يروى المؤرخون ما يلى :

«كان يسمع القرآن وغيره ، فلا يتحرك ، فلما كان أواخر عمره صار

يتواجد ويقول :

ضعفنا والله عن التحمل ، وصار واردنا أقوى منا»

وقال ابن سالم :

خدمت سهل بن عبد الله ستين سنة فما تغير في شيء من الذكر

أو غيره ، فلما كان آخر يوم من عمره قرأ رجل بين يديه هذه الآية :
« فالיום لا يؤخذ منكم فدية ، فرأيت ارتعد واضطرب حتى كاد

يسقط ، فلما رجع إلى حال صحوه سأله عن ذلك وقلت :

لم يكن عهدى بك هذا ؟ فقال :

نعم يا حبيبي قد ضعفت ، فقلت :

ما الذى يوجب قوة الحال ؟ فقال :

لا يرد عليه وارد إلا وهو يتلعه بقوته ، فن كان كذلك لا تغيره
الواردات ، وإن كانت قوية .

وكان يقول : حالى فى الصلاة وقبل الدخول فيها سواء ، وذلك أنه
كان يراعى قلبه ، ويراقب الله تعالى بسرّه قبل دخوله فيقوم إلى الصلاة
بمحضور قلبه ، وجمع همته »

ولقد دخل سهل على رجل من عباد البصرة ، فرأى عنده بليلة فى
قفص ، فقال : لمن هذه البليلة ؟

فقال : لهذا الصبي ، كان ابناً له .

قال : فأخرج سهل من كفه ديناراً ، فقال :

بُنَى أبهما أحب إليك : الدينار أم البليلة ؟

فقال : الدينار ؛ فدفع إليه الدينار وأطلق البليلة .

قال : فقعد البلبل على حائط الدار حتى خرج سهل فجعل يرفرف
فوق رأسه حتى دخل سهل داره ، وكان فى داره سدره ، فسكنت
البليلة السدره فلم تزل فيها حتى مات ، فلما رفعوا جنازته جعلت ترفرف
فوق جنازته والناس يبيكون حتى جاؤا بها إلى قبره ، فوقفت فى ناحية

حتى دفن وتفرق الناس عن قبره ، فلم تزل تضطرب على قبره حتى ماتت فدفنت بجانبه»

وفي ليلة الجمعة من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، أذن مؤذن الفجر بالصلاة ، فلم يتحرك سهل ؟
فصاح أهل بيته : مات سهل ، فما كان لمؤذن أن يرتفع صوته
بنداء التكبير دون أن يقول سهل :

« لبيك اللهم لبيك »

وروى أبو الحصين الحمصي في كتابه - بهجة الأسرار - أنه لما مات سهل ، انكب الناس على جنازته حتى ماجت الطرقات بالناس ، وكان في البلد يهودى نيف على السبعين ، فسمع الضجة فخرج لينظر ما كان ، فلما نظر إلى الجنازة ، صاح : أترون ما أرى ؟ فقال له الناس :

ماذا ترى ؟ قال :

أرى أقواماً يتزلون من السماء يتمسحون بالجنازة ،
ثم تشهد وأسلم .

أما المبدأ الذى عاش ومات وهو شعاره الذى ينشره بين الناس ،
والذى نختم به حياته ، فقد عبر عنه بقوله :
« الأصل الذى أنا أدعو إليه قولى : اتقوا يوماً لا ليلة بعده ، وموتاً
لا حياة بعده والسلام .

تقدير العلماء لسهل :

والآن نذكر تقدير بعض العلماء له :

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

أحد أئمة القوم ، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات مع الله وفي الورع ، وكان صاحب كرامات .

ويقول صاحب كتاب الكواكب الدرية :

الشيخ الأمين ، الناصح المكين ، الناطق بالعقل الرصين ، من أعظم المشايخ المشهورين ، ولم يبرز للناس حتى وقع الإذن له من الله ، وأطلعه على مرئيه وأسماهم وأنسابهم ومن يفتح عليه منهم ومن يموت قبل الفتح .

حبر تجمل الإسلام بوجوده ، وزين طريق الصوفية بقلائد فوائده وعقوده ، وكان أوحده زمانه في علوم الرياضيات .

ومن قبل هؤلاء كتب أبو نعيم الأصفهاني المحدث المشهور يقول :

فإنهم الشيخ المكين ، الناصح الأمين ، الناطق الرصين أبو محمد

سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن ربيع التستري :

تخرج عن خاله محمد بن سوار ، ولقي أبا الفضل ذا النون المصري بالحرم .

عامة كلامه في تصفية الأعمال ، وتنقية الأحوال عن المعايير

والإعلال .

ويقول أبو عبد الرحمن السلمي :

ومنهم سهل بن عبد الله التستري ، وهو سهل بن عبد الله

بن يونس بن عيسى ابن عبد الله بن ربيع ، وكنيته أبو محمد .
أحد أئمة القوم وعلمائهم ، والمتكلمين في علوم الرياضات
والإخلاص وعيوب الأفعال .

ويقول العالم الجليل الذي جمع تفسيره ما يلي :
وكان من طريقه وسيرته أنه كان كثير الشكر والذكر ، دائم الصمت
والفكر ، قليل الخلاف ، سخي النفس ، قد ساد الناس بحسن الخلق
والرحمة والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، متمسكاً بالأصل ، عاملاً
بالفرع ، قد حشى الله قلبه نوراً ، وأنطق الله لسانه بالحكمة ، وكان من
خير الأبدال ، وإن قلنا من الأوتاد ، فقد كان القطب الذي يدور عليه
الرحى ولولا أن الصحابة لا يقاس بهم أحد لصحبته ورؤيتهم لكان
كأحدهم ، عاش حميداً ، ومات غريباً بالبصرة ، رحمه الله تعالى . .

ويقول المستشرق الذي كتب مادة « سهل التستري » في دائرة
المعارف الإسلامية :

« متكلم وصوفي من أهل السنة . . . كان زاهداً لا يجيد قيد أغمله
عن . . قواعد الحق ، كما كان متكلماً تزود من العلوم العقلية بزاد
وافر . . . »

ويقول صاحب كتاب « عقد الجان »
الصالح المشهور ، ولم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع ،
وكان صاحب كرامات ، ولقى ذا النون المصري ، وله اجتهاد وافر
ورياضة عظيمة .

ويقول صاحب «شذرات الذهب» :
القدوة العارف . . . له مواعظ وأحوال وكرامات ، وكان من أكبر
مشايخ القوم
وهكذا بلغ سهل بعلمه وصلاحه هذه المنزلة الرفيعة عند العلماء
والصالحين
والآن نأخذ في رسم الطريق كما رسمه سهل رضى الله عنه .

سهل ومجالات علم التوحيد

يقول الله تعالى : « ليس كمثله شيء » .

ويقول سبحانه : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون »

ويقول الإمام ابن عبد البر متناسقاً مع القرآن الكريم :

إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بمثال ، أو بامعان نظر؟

ولقد تورع الكثير من سادتنا العلماء عن الحديث في ذات الله

سبحانه إلا بما ورد في النصوص ، ويقولون في كل ما يتصل بالذات

من النصوص :

« آمننا به على مراد الله » .

أما التحديد والتفسير والتأويل بالرأى والعقل والفكر البشري فإنهم

بعيدون عن ذلك ، وشعارهم في ذلك قوله تعالى :

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون »

ولقد اتجه علماء الإسلام الأول إلى إحياء الإيمان في النفوس ،

وزيادته في القلوب عن طريق السير على أسلوب القرآن في العظة

والعبرة .

ولكن فريقاً من الناس اتجهوا إلى البحث في المتشابه ، والمتشابه هو

كل ما يتصل بالذات الإلهية التي لا تدرك بمثال ولا بامعان نظر .

ولقد حاول سهل رضي الله عنه أن يعود بالأمر إلى الوضع الصحيح

فى هذا الموضوع ، ونحدث عن العلم فى جو التناسق مع القرآن .
يقول سهل بمناسبة قوله تعالى : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا »
يعنى أقرنا مخافة السبى والقتل ، لأن الإيمان : اقرار باللسان
صدقاً ، وإيقان فى القلب عقداً ، وتحقيقها بالجوارح إخلاصاً ، وليس
فى الإيمان أنساب ، وإنما الأنساب فى الإسلام ، والمسلم محبوب إلى
الخلق ، والمؤمن غنى عن الخلق .

ويتحدث سهل عن مثل المؤمن فى الدنيا فيقول :
« ما ينبغي للمؤمن من أن يكون فى الدنيا إلا كمثل رجل ركب
خشبة فى البحر ، وهو يقول :

يارب ، يارب ، لعل أن ينجيه منها ، وما من عبد مؤمن زهد فى
الدنيا إلا وكل الله به ملكاً حكيماً يغرس فى قلبه أنواع الحكم كما يغرس
أهل الدنيا فى بساتينهم من طرف الأشجار »

ولقد سئل سهل عن القاطع للمؤمن عن الله فقال :
« العبد لله والله لعبده ، وليس شئ أقرب إليه من قلب المؤمن ،
فاذا حضر الغير فيه فهو الحجاب ، ومن نظر إلى الله بقلبه بعد عن كل
شئ دونه ، ومن طلب مرضاته أرضاه بحلمه ، ومن أسلم إلى الله تعالى
قلبه سلمت جوارحه فاستقامت ، وإنما شهدت قلوبهم على قدر
ما حفظوا من الجوارح ، ثم قال :

الزموا قلوبكم نحن مخلوقون وخالقنا معنا ، ولا تملوا من أعمالكم فإن
الله شاهدكم حينما كنتم ، وأنزلوا به حاجاتكم ، وموتوا على بابه ،
قولوا :

نحن جهال ، وعالمنا معنا ، ونحن ضعفاء ومقويننا معنا ، ونحن عاجزون وقادرننا معنا ، فإن من لزمها كان الهواء والفضاء والأرض والسماء عنده سواء .

ولقد تحدث سهل كثيراً عن أخلاق المؤمنين ، ومن ذلك ما يلي :
قوله تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ^(١) » قال :

كل من صح إيمانه فإنه لا يأنس بمبتدع ويحابه ، ولا يؤاكله ، ولا يشاربه ، ولا يصاحبه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عزه في الدنيا وعرضاً منها أذله الله بذلك العز ، وأفقره الله بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب .

ويقول : « ليس من أخلاق المؤمن التذلل عند الفاقة ، وقبيح بالفقراء يلبسون الخلقان : وهموم الأرزاق في قلوبهم ، وإنما أصل هذه الأمور ثلاث :

السكون إلى الله جل وعز ، والهرب من الخلق . وقلة الأذى .

ولقد كان عامر بن قيس يقول إذا أصبح :

اللهم إن الناس قد انتشروا لحوائجهم ، وإن حاجتي أن تغفر لي .

وقال بمناسبة قوله تعالى : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم

تعلموهم أن تطؤوهم ^(٢) » قال : المؤمن على الحقيقة من لا يغفل عن

(٢) الفتح ٢٥ .

(١) المجادلة ٢٢ .

نفسه وقلبه يفتش أحواله ، ويراقب أوقاته فيرى زيادته من نقصانه فيشكر عند رؤية الزيادة ، ويتفرغ ويدعو عند النقصان .

هؤلاء الذين بهم يدفع الله البلاء عن أهل الأرض ، ولا يكون المؤمن متهاوناً بأدنى التقصير فإن التهاون القليل يستوجب الكثير ، قال :
فإن العبد لا يجد طعم الإيمان حتى يدع ست خصال :

يدع الحرام ، والسحت ، والشبهة ، والجهل ، والمسكر ، والرياء ، ويتمسك بالعلم وتصحيح العمل ، والنصح بالقلب ، والصدق باللسان والصلاح مع الخلق في معاشرتهم والإخلاص لربه في معاملته .

وقال بمناسبة قوله تعالى : « أفن كان على بينة من ربه » :
المؤمن على بيان من ربه ، ومن كان على بينة من ربه لزم الاقتداء بالسنن وقال بمناسبة قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ^(١) »

المؤمن وجهه بلا قفا ، كزار غير فرار ، تراه يجاهد في دين الله وطاعته من إقامة توحيده ، واقتدائه بنبيه ، وإدامة التضرع واللجأ إلى الله رجاء الاتصال به من موضع الاقتداء ، كما روى زيد بن أسلم عن النبي ﷺ ، قال :

ما من أمتي إلا يدخل الجنة إلا من أبي ، قلنا يارسول الله ومن الذي يأتي ذلك ؟

قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي أن يدخل الجنة .

(١) الحج : ١١

وحقيقة التوحيد : هو النظر للحق لاغير ، والإقبال عليه ،
والاعتماد ، ولا يتم ذلك إلا بالإعراض عما سواه ، وبإظهار الافتقار
واللجأ إليه .

ولقد سئل عن ذات الله سبحانه ، فقال :
ذات موصوفة بالعلم .

غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا .
وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا حلول .
وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته .

وقد حجب سبحانه وتعالى الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه
بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والأبصار لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون
بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية » .

وقال : « ليس له وراء ، وليس وراء الله وراء ، هو وراء كل شيء
جل الله عز شأنه »

ولقد سأله رجل عن علم الله تعالى في عباده : هل هو شيء بداله
من بعد ما خلقهم أو كان قبل أن يخلقوا ؟

فقال : « بل هو قرآن مجيد » أى كتاب محكم في لوح محفوظ قبل
أن يخلقوا ، وإن الله عز وجل فرغ من علم عباده وما يعملون قبل أن
يخلقهم ، ولم يجبرهم على المعصية ، ولا أكرههم على الطاعة ، ولا
أهملهم من تدبيره ، بل نبه على ما توعد به من كذب بقدره فقال :
« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١)

(١) الكهف : ٢٩ .

على وجه التهديد ، إذ لا حول لهم ولا قوة إلا بما سبق علمه فيهم
أنه سيكون منه بهم وهم ، قال الله تعالى :
« وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ^(١) »
فالخير من الله تعالى أمر وإليه الولاية فيه ، والشر من الله نهى وإليه
العصمة فيه ،

ويحمل سهل على كل من يسير في تيار المعتزلة في موضوع أفعال
العباد ، ومن ذلك ما يقوله عن المؤمنين :
فأمرهم الله عز وجل أن يؤمنوا بالغيب ، وأن يتبرأوا عن الحول
والقوة فيما أمروا به ونها عنه ، اعتقاداً ، وقولاً ، وفعللاً ، ويقولوا :
لا حول لنا عن معصيتك إلا بعصمتك ، ولا قوة لنا على طاعتك
إلا بمعونتك ، إشفاقاً منه عليهم ، ونظراً لهم من أن يدعوا الحول والقوة
والاستطاعة كما ادعاهم من نسبت له الشقاوة ، فلما عاينوا العذاب تبرؤوا
من ذلك فلم ينفعهم تبرؤهم حين عاينوا العذاب ، وقد أخبر الله عمن
هذا وصفهم في قوله :

« فلم يك ينفعهم إيمانهم - أى دعواهم - لما رأوا بأسنا ؛
.. فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا
ظالمين ^(٢) »

وكما ادعى الحول والقوة والاستطاعة فرعون وقال : متى شئت أنى
أومن أومن ، فلما آمن لم يقبل منه ، قال الله تعالى :

(١) الرعد : ١١ .

(٢) الأعراف : ٥ .

« الآن وقد عصيت ^(١) »

أما عن مشكلة خلق القرآن فإن سهلاً يخالف المعتزلة ويقول بمناسبة قوله تعالى :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر ^(٢) » قال :

أى بعلم ربي وعجائبه ، ثم قال :

إن من علمه كتابه ، ولو أن عبداً أعطى لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية علم الله فيه ، لأنه كلامه القديم ، وكلامه صفتة ولا نهاية لصفاته كما لا نهاية له ، وإنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم كلامه .

أما عن فكرته في أفعال العباد فإنه يقول :

معنى : « رب العالمين » سيد الخلق المربى لهم ، والقائم بأمرهم ، المصلح المبدي لهم قبل كونهم وكون فعلهم ، المتصرف بهم السابق علمه فيهم كيف شاء لما شاء ، وأراد وحكم وقدر من أمر ونهى ، لإرب لهم غيره .

أما عن موقف المؤمن من القرآن الكريم ، فإن سهلاً يتحدث عن ذلك في أكثر من مكان .

قيل له : مامعنى قوله القرآن حبل الله بين الله وبين عباده ؟

قال : أى لا طريق لهم إليه إلا به ، وبفهم ما خاطبهم فيه للمراد

(١) يونس : ٩١ .

(٢) الكهف : ١٠٩ .

منهم به ، والعمل بالعلم لله مخلصين فيه ، والافتداء بسنة محمد ﷺ
المبعوث إليهم ، كما قال :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله ^(١) »

وقال سهل : إن الله تعالى أنزل القرآن على نبيه ﷺ ، وجعل قلبه
معدنا لتوحيده والقرآن ، فقال :

نزل به الروح الأمين على قلبك ^(٢)

وكلفه تبليغه عنه ليعلم المؤمنون به ما أنزل إليهم ، فمن آمن به ولم
يعمل بعلم ما فيه لم يكمل أجره »
وقال سهل :

العجب كل العجب لمن قرأ القرآن ولم يعمل به ، ولم يجتنب ما نهاه
الله عنه ، أما استحيا من الله ومحاربتة ومخالفتة أمره ونهيه بعد علمه به ؟
فأى شيء أعظم من هذه المحاربة ؟ ألم يسمع وعده ووعيده ؟ ألم يسمع
ما وعده الله به من النكال فيرحم نفسه ويتوب ؟ ألم يسمع قوله : « إن
رحمة الله قريب من المحسنين ؟ » فيجهد في الإحسان ؟

ألم يسمع قوله : ورحمتي سبقت عذابي فيرغب في رحمتي ؟
وبعد : فإن علامة المؤمن الكامل - كما يقول سهل - ألا يخاف
أحدا دون الله .

(١) النساء : ٨٠ .

(٢) الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .

الباب الثاني

الطريق

- الفصل الأول : الطريق في جوه المادى .
- الفصل الثانى : الطريق في جو القدوة والتأسى .
- الفصل الثالث : الطريق في جوه الأخلاقى
- الفصل الرابع : الطريق في جو التوبة
- الفصل الخامس : الطريق في جو الإخلاص .
- الفصل السادس : الطريق في جو المعراج .
- الفصل السابع : الطريق من زوايا الولاية والكرامات .
- الفصل الثامن : متناثرات عن الطريق في الحكم والمواعظ والنصائح والتوجيهات .

الفصل الأول

الطريق في جوّه المادى

بلغ سهل النضوج ، والنضوج الروحى بتوفيق الله بعد جهاد ومجاهدة ، بعد ذكر وعبادة ، بعد صوم وسياحة : . وحينما أذن الله له فى الدعوة إليه أخذ يدعو إليه على بصيرة ، ويرسم الطريق إليه على هدى والطريق الذى رسمه إنما هو نتيجة خبرة عالمة ، ونتيجة وصل إليها عالم مجرب لقد سار سهل مع التجربة الروحية فى مسالكها ، ومدارجها ، ومعارجها ، لقد عاشها ؛ لقد كان يحياها حياة الذكى المتبصر العالم ، لقد عاش التجربة الروحية طولاً وعاشها عرضاً ؛ لقد فنى فيها فكان هو هى . . .

ورسمها

كيف رسمها ؟ ما هى سماتها ؟ ما الطريق ؟ .
والطريق له أجواء مترابطة ، متلازمة أو متلاحمة ، ونبدأ ، بتيسير الله بالكتابة عن الطريق فى جوّه المادى حسباً خطه سهل ونعنى بالطريق فى جوّه المادى : الحياة من ناحية المأكل والمشرب .

وبعض الناس لا يبالي بطعامه وشرابه من ناحية الحل والحرمه ، وبعضهم لا يهتم الاهتمام الدقيق لذلك ، ولكن الصوفية يرون أن أكل

الحلال إنما هو الخطوة الأولى المادية في الطريق إلى الله ومثلها في هذا الجانب مثل التوبة في الجانب الروحي ، يقول سهل :
« من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أولم يعلم ^(١) »
ومن عصت جوارحه ، ومن غلبته جوارحه فليس له في طريق الله نصيب.

ولا مناص من الابتعاد عن أكل الحرام حتى لا تتمرد الجوارح ،
وحق لا يكون ارتكاب للإثم ، وأكل الحرام نفسه إثم باعث على
الإثم .

وقد يقول قائل إن هذه المسألة أمرها هين ، فالتناس عادة يأكلون
الحلال من مرتباتهم ، أو من مزارعهم ، أو من مهنتهم . . .
بيد أن الصوفية لا ينظرون إلى الأمور هذه النظرة السهلة . إنهم
يتخرجون ويتساءلون : أدخل هذا المال رباً ؟
أأدى الإنسان فيه حق الله من الزكاة ؟

أأدى الإنسان فيه حق الله من ناحية الأمانة في العمل ، ومن ناحية
اتقانه : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ؟ وإن من أخذ
الأجر حاسبه الله على العمل ، فهل كان العمل مجزياً بالنسبة للأجر ؟
هل دخل هذا المال مال من الأيتام ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النمط ، هي مظهر من مظاهر الحرص على أن
يعيش في الجوارح الحلال الصافي ، وذلك أن :

من أحب أن يكشف بآيات الصديقين ، فلا يأكل إلا حلالاً ،

(١) الكواكب الدرية .

ولا يعمل إلا في سنة أو لضرورة ^(١) على حد تعبير سهل :
وإنه ، كما يقول : « من لم يكن مطعمه من الحلال ، لم يكشف
عن قلبه حجاب ، وتسارعت إليه العقبات ، ولا تنفعه صلاته ،
ولا صومه ، ولا صدقته ^(٢) »

وقد بين سهل النتيجة العامة ، لأكل الحرام بقوله :
« يأتي على الناس زمان يذهب الحلال من أيدي أغنيائهم وتكون
أموالهم من غير حلها ، فيسلط الله بعضهم على بعض : يعني بالأذى
والمرافعات عند الحكام .

فتذهب لذة عيشهم ، ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا ، وخوف
شاة الأعداء .

ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم ، وتكون سادتهم في
بلاء وشقاء وعناء وخوف من الظالمين..
ولا يستلذ بعيش يومئذ إلا منافق لا يبالي من أين أخذ ، ولا فيما
أنفق ، ولا كيف أهلك نفسه .

(١) : الكواكب الدرية .

(٢) الطبقات الكبرى للشراف .

أكل الحلال . . . ومع ذلك فإن هذا الحلال نفسه ، لا يؤدي إلى خير إذا أسرف الإنسان فيه :

« ذلك أن البطنة أصل الغفلة » كما يقول سهل :
والدنيا - كما يرى - حرام على صفوة خلق الله ، لا ينالون فيها إلا بقدر الضرورة^(١) »

« ومادامت النفس تشتهي المعصية ، فلا يصل للقلب شيء من نور الطاعة ، فأدبوا أنفسكم بالجوع والعطش »^(٢)

وعامة الناس معنيون عناية شديدة بالأكل والشرب ، وبعضهم لا هم له إلا ذلك وبين سهل أنواع عيش الناس ومنازلهم من ذلك فيقول :

« العيش على أربعة أوجه :

عيش الملائكة في الطاعة وعيش الأنبياء ، في العلم وانتظار الوحي وعيش الصديقين ، في الاقتداء وعيش سائر الناس عالماً كان أو جاهلاً زاهداً كان أو عابداً ، في الأكل والشرب »

ويقول سهل : الضروري للأنبياء والقوام الصديقين والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

(١) الكواكب الدرية : للمناوي . (٢) : الكواكب الدرية .

ويعنى بالمعلوم . الأكل الذى ليس ضرورة ، ولا قواماً ، ولا قوتاً
إنما هو زائد على ذلك . على أن الشبع بمعناه الحقيقى لا يؤدى إليه
الأكل فحسب .

فمن ظن أنه يشبع من الخبز : جاع .
والإنسان يمكنه أن يعيش أياماً دون أن يشعر بلهيب الجوع ، وقد
ستل سهل عمن لا يأكل أياماً : أين يذهب طب جوعه ؟
فقال : يطفئه نور القلب .

على أنه من الطريف أن يسأل رجل سهلاً ، فيقول له :
يا أستاذ ، أى شىء القوت ؟
قال : الذكر الدائم

قال الرجل : لم أسألك عن هذا ، إنما سألتك عن قوام النفس
فقال : يارجل لا تقوم الأشياء إلا بالله .
فقال الرجل : لم أعن هذا ، سألتك عما لا بد منه
فقال : يا فتى لا بد من الله

كان سهل ، يوجه إلى الله حتى حينما يسأل عن الناحية المادية .
وبعد : فهذه بعض أقوال سهل فيما يتعلق بذلك ، إنه يقول
لا يرى فى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام ،
والافتداء بالمضطرى ^{صلى الله عليه وسلم} فى أكله . ويقول :

لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا .
ويقول :

لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل

ويقول :

جعل العلم والحكمة من الجوع ، وجعل المعصية والجهل في الشبع .

ويقول :

ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال ، وقد قال في الحديث : « ثلث للطعام » فما زاد فإنما يأكل من حسناته .

ويقول :

إنما صار الأبدال أبدالاً بإخفاص البطون والصمت والسهر والخلوة .

ويقول :

رأس كل بر بين السماء والأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما

الشبع

ويقول :

إقبال الله على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء كله

ويقول :

لو كانت الدنيا دماً عبيطاً كان قوت المؤمنين منها حلالاً لأنه أكله عند الضرورة بقدر القوام فقط :

ويقول :

إنما حجب الخلق عن مشاهدة الملكوت ، وعن الوصول : بسوء المطعم وأذى الخلق .

الأكل الحلال وعدم الإسراف فيه :

ولابد من أمر ثالث حتى تنتهى من : « الطريق في جوه المادى »
إن الناس يتكالبون على الحياة ويجرون وراء العيش في غير إجمال
ولا رفق في الطلب وإنما في نهم وفي تهافت .
ويحاول سهل ، أن يجعل الناس يجهلون في الطلب ، ويفرقون في
الجرى وراء الدنيا ، ويجعلون لله حساباً في تقديرهم وتصريفهم للأمور ،
فيقول لهم :

« إن المؤمن أكرم على الله من أن يجعل رزقه من حيث يحتسب ،
يطمع المؤمن في موضع فيمنع من ذلك ويأتيه من حيث
لا يحتسب »^(١)

« إن الله تعالى خلق الخلق ولم يحبهم عنه ، وإنما جاءهم الحجاب
من تدبيرهم واختيارهم مع الله تعالى ، وذلك هو الذى كدر على الخلق
عيشهم »

وينتهى سهل من مشكلة الاكتساب بقوله : « من طعن على
الاكتساب ، فقد طعن على السنة »

وذلك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يحث دائماً على العمل

(١) : حلية الأولياء .

والكسب ، فيقول ﷺ : «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» رواه البخارى .
وعن المقداد بن معد يكرب ، رضى الله عنه ، عن النبي ، ﷺ ، قال :

«ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وإن نبي الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده» رواه البخارى وقال ﷺ :

«ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة» رواه البخارى ومسلم والترمذى وينتهى سهل أيضا بأن :

«من طعن على التوكل ، فقد طعن على الإيمان» وذلك أن الله ، سبحانه وتعالى ، يقول :

«ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا»

ويقول سبحانه : «وعلى الله فليتوكل المؤمنون»
ويقول الرسول ﷺ :

«لو توكلتم على الله حق التوكل ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خفافا وتروح بظانا» من طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل ، فقد طعن على الإيمان

ولابد إذن من تنسيق ينسجم فيه الاكتساب مع التوكل
ولابد من الاكتساب ولابد من تفويض الأمر في النتيجة لله ،
سبحانه وتعالى ولابد من العمل المتقن ، ولابد مع ذلك من أن يكل
الإنسان أمر اجتناء الثمرة إلى الله ، سبحانه وتعالى
ولابد من أن يعقل الإنسان ناقته ، ثم يتوكل على الله في أمر
حفظها ، يقول ﷺ : « إعقلها وتوكل »

فإذا ما تأق التنسيق بين الاكتساب والتوكل ، هدا المؤمن
واستراحت نفسه وأجمل في الطلب ورضى بما قسمه الله له ، وغمره
نوع من السكينة ويسرت عليه أمور الحياة .

الاكتساب والتوكل : ذلك قانون الإيمان ، وقانون الصوفية
وما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله
داود كان يأكل من عمل يده وإبراهيم بن أدهم - إمام من أئمة
الصوفية ، ومنارة من منارات التقوى - كان متوكلا على الله ، وكان
يعمل فيأكل من عمل يده .

وهنا تنهات كل الاعتراضات - اعتراضات أهل الدنيا - التي
تصل بالكسب نفيا لوجوده في جو الصوفية ، أو التي تصل بالتوكل
تحريفا لمعناه وذهابا به إلى غير سبيله ، ومن الحق أن :
« من طعن على الاكتساب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على
التوكل فقد طعن على الإيمان »

« لقد اهتم سهل اهتماما كبيرا بأكل الحلال ، وذلك لما لهذا الجانب
من مكانة كبرى في الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى ، وفي كسب الحلال .

ولبيان هذه المنزلة نذكر الحديين التاليين عن رسول الله ﷺ :

روى ابن مردويه - بسنده - عن ابن عباس قال :

« تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال :

يا سعد ، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالتار أولى به »

وروى أحمد ومسلم بسندهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم »

وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون » ثم ذكر بالرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأني يستجاب لذلك » . .

ومن طريف ما يروى في ذلك عن سهل - وهي قصة لها مغزاها العميق - أنه قال مرة : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة على أوليائه زمانى ، فبلغ ذلك أبا زكريا الساجى وأبا عبد الله الزبيرى ، فذهبا إليه ، فقال له أبو عبد الله الزبيرى - وكان جسورا لأنه ضرير : بلغنا عنك أنك تقول : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة الله على أوليائه

زمانى» ، فماذا صرت ؟ هل أنت نبي أو صديق ؟
فقال سهل : لم أذهب حيث ظننت ، ولست أنا نبيا ، إنما قلت
هذا لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى .. فقال له : وأنت
صححت الحلال قال : نعم ، لا آكل دائما إلا حلالا فقال له
الزبيرى : وكيف ذلك ؟

فقال له سهل : قسمت عقلى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء ،
فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء ويبقى جزء واحد ، فإذا خفت
أن يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسى أكلت بقدر البلغة خوفا أن
أكون أعنت على نفسى ، ولترد على الستة الأخرى ، فهذا صح
الحلال ..

«فقال الزبيرى : نحن لا نقدر على المداومة على هذا ، ولا نعرف
أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء ، واعترف بفضل سهل
رضى الله عنه .

الفصل الثاني

الطريق في جوار القدوة والتأسي

ونريد الآن - بتوفيق الله - أن نتدرج في الطريق : سائرين مع أجوائه المتترقية ، ومع منازل المتسامية ، حتى نصل مع « سهل » إلى تصوير الغاية التي يهدف إليها الداهيون إلى الله ، على الأسلوب الذي سلكه سهل ورسمه ، وعلى الطريقة التي سار عليها وتقرب إلى الله بها .
والسؤال الذي يدور على الألسنة دائما هو :

ما مدى صلة الطريق بالسنة النبوية ، بسلوك رسول الله ﷺ ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (١)

لما هو موقف سهل من هذه الأسوة ؟ وما هو مدى التزامه ؟
إن اتباع الهوى هو سبيل المنحرفين
يقول سهل :

« كل عبد يفعل طاعة أو يتخلى عن معصية بغير اقتداء فهو عيش النفس » أى حظها وهواها ، إنه وقد تخلى عن الاتباع إيجابا أو سلبا
ليس إلا هوى .

(١) الأحزاب : ٢١ .

يقول الله تعالى :

«أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب
أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل
سبيلا^(١)»

أما سبيل المؤمنين فإنه الاتباع .

يقول سهل :

«أيما عبد قام بشيء مما أمر الله به من أمر دينه ، فعمل به ،
وتمسك به ، فاجتنب ما نهى الله ، تعالى عنه ، عند فساد الأمور ،
وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس في الرأي ، والتفرق . . . إلا
جعل الله إماما يفتدى به ، هاديا مهديا ، قد أقام الدين في زمانه ،
وأقام الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وهو الغريب في زمانه ، الذي قال رسول الله ﷺ عنه :

«بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ»

وما من عبد دخل في شيء من السنة ، وكانت نيته متقدمة في
دخوله الله ، إلا خرج الجهل من سره شاء أو أبى ، بتقديمه النية .
ولا يعرف الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم » (إن الاتباع
علم ، وعدم الاتباع جهل . إنه جهل مها بلغ صاحبه من الثقافة ،
وذلك أن كل رأى في عالم الأخلاق لا تأسى فيه إنما هورأى ظنى ، وهو
رأى تسهل معارضته برأى آخر ، ويسهل نقضه برأى ثالث ، إنه إذن
جهل حيث لا يقين فيه ، قال الله تعالى :

(١) الفرقان : ٤٣ - ٤٤ .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »^(١)

وما من شك في أن الفوضى الأخلاقية التي نعيش فيها ، والانحراف
في الشباب وفي الشيوخ الذي تعاني منه المجتمعات المعاصرة : إنما
مرجه إلى المحاولات الآتمة التي يدعو إليها الملاحدة من فصل الأخلاق
عن الدين وإذا ما فصلت الأخلاق عن الدين : فإنها تتعرض لآفات
كثيرة منها :

١ - أنها تفقد قدسيتها حيث يصبح منبعها بشريا لا إلهيا ، وحيث
تصبح بذلك رأيا لا عقيدة .

٢ - تصبح جدلا : ينكرها جملة من ينكرها : ينكرها
السوفسطائيون ، وينكرها نيتشه ، وينكرها الوجوديون ، ولا يرى
هؤلاء ، ولا أولئك للفضيلة معنى ثابتا ولا للخير مبادئ حقيقية .

٣ - تصبح نسبية : تتقلب مع أهواء الفرد ، ومع نزوات
المنحرفين ، ومع شهوات المبطلين .

وينتج عن ذلك كله : اضطراب المجتمع ، وفساد الجماعة ، لا
يأمن الناس على دمائهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم .

ومن أجل ذلك كان التأسي علما ، وكان حكمة أيضا : حكمة
بالنسبة للفرد : يأمن ويهدأ ، وحكمة بالنسبة للمجتمع : يستقر ويرق .
وأما عدم التأسي فإنه جهل ، وإنه لسفه أيضا :

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان

(١) النساء آية : ٦٥ .

من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ،
فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ذلك مثل
القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون^(١) »
« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسلياً^(٢) »

« واتباع السنن الديني : ذلك هو طريق الهداية ، قال الله تعالى :
« واتبعوه لعلكم تهتدون » وكلمة سهل عن أصول الطريق مشهورة
معروفة ، إنه يقول : أصولنا سبعة أشياء :

التمسك بكتاب الله تعالى ، والافتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل
الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة . وأداء
الحقوق . ويتحدث سهل في تفسيره عن الافتداء برسول الله ﷺ فيقول
في قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا^(١) »
قال : « أصول مذهبنا ثلاث :

أكل الحلال ، والافتداء بالرسول ﷺ في الأخلاق والأفعال .
واخلاص النية في جميع الأعمال . وقال : ألزموا أنفسكم ثلاثة أشياء .
فإن خير الدنيا الآخرة فيها : صحبتها بالأمر والنهي بالسنة . وإقامة
التوحيد فيها وهو اليقين . وعلمها فيه اتصال الروح .
وصاحب هذه الثلاثة أعلم بما في بطن الأرض مما على ظهرها .
ونظرة في الآخرة أكثر من نظره في الدنيا ، وهو في السموات أشهرين

(١) الأعراف آية : ١٧٥ ، ١٧٦ . (٣) الحشر ٧

(٢) النساء آية : ٦٥ .

الملائكة منه في الأرض بين أهله وقربائه ، فقليل : ما العلم الذي فيه
ايصال الروح ؟

قال : علم قيام الله عليه والرضا

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ^(١) »

قال : هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة ، فلا يضل عن طريق

الهدى ، ولا يشقى في الآخرة والأولى انتهى

وقال : من لم يكن اقتداؤه في جميع أموره بالنبي ﷺ فهو ضال

« إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ^(٢) »

قال : هم الذين صدقوا الله في السر والعلانية ، واتبعوا سنة نبيه

ﷺ ، ولم يتدعوا بحال

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ^(٣) »

قال : الأميون هم الذين صدقوا محمداً ﷺ ، نسبوا إليه لاتباعهم

إياه واقتدائهم به ، ومن لم يقتد به فليس من أمته .

يقول سهل :

« لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ،

ولا عمل إلا الصبر »

ومن أجمل ما كتبه سهل في الاتباع قوله بمناسبة قول الله تعالى :

(إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) قال : حسن العمل الاستقامة

عليه بالسنة ، وإنما مثل السنة في الدنيا مثل الجنة في الآخرة ، ومن

(٣) الجمعة ٢ .

(١) طه ١٢٣ .

(٢) الحج : ١٤ .

دخل الجنة سلم ، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم من الآفات .
وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : لو أن رجلا ارتكب جميع
الكبائر لم يكن فيه شيء من هذه الأهواء والبذع لرجوت له ، ثم
قال : من مات على السنة فليشر ثلاث مرات .

وقال سهل : لا يرفع الحجاب عن العبد حتى يدفن نفسه في
الثرى ، قيل له : كيف يدفن نفسه ؟ قال : يميتها على السنة ، ويدفنها
في اتباع السنة ، لأن لكل شيء من مقامات العابدين مثل الخوف
والرجاء والحب والشوق والزهد والرضى والتوكل غاية إلا السنة فإنه
ليست لها غاية ونهاية . . .

فستل عن معنى قوله : لبت للسنة غاية ، فقال : لا يكون لأحد
مثل خوف النبي ﷺ أو حبه أو شوقه أو زهده أو رضاه أو توكله أو
أخلاقه . وقد قال الله تعالى :

«وإنك لعلی خلق عظیم»

ويقول في تفسير قوله تعالى : «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى» :
أى يزيد الله الذين اهتدوا بصيرة في إيمانهم بالله وفي اقتدائهم بمحمد
ﷺ وهو زيادة الهدى والنور المبين .
ويقول في تفسير قوله سبحانه :

«فلما آسفونا انتقمنا منهم» .

أى فلما غايطونا بالإقامة على المخالفة في الأوامر وإظهار البدع في
الدين وترك السنن ، اتباعا لوجود الأهواء ، نزعنا نور المعرفة من قلوبهم
وسراج التوحيد من أسرارهم ، ووكلناهم إلى أنفسهم ، وما اختاروه

فضلوا وأضلوا ، ثم قال :

الاتباع الاتباع ، الاقتداء ، فإنه سبيل السلف ، ما ضل من اتبع ، وما نجا من ابتدع .

ويقول في تفسيره لقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا »

يعنى بطاعة الله واتباع السنن .

ومما لا شك فيه أن سهلا كان متمثلا - فى ذلك - لما روى عن رسول الله ﷺ :

فعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :
« من أكل طيبا ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقة دخل الجنة » .

قالوا : يا رسول الله ، إن هذا فى أمتك اليوم كثير .
قال : وسيكون فى قوم بعدى ^(١)

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حجة الوداع فقال :

« إن الشيطان قد يشس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، . . إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنة نبيه » ^(٢)

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وغيره ، والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الإسناد .

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، وله أصل فى الصحيح .

وعن مجاهد قال :

كنا مع ابن عمر - رحمه الله - في سفر ، فربم كان فحاد عنه ، فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت (١) . .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقبل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك (٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٣)

وعن جابر رضي الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ إذا خطب أحمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : يعث أنا والساعة كهاتين - ويقرن بين إصبعيه - السبابة والوسطى - ويقول :

« أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة . . ثم يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك ما لا فلاهله ، ومن ترك ديننا أو ضياعا فإلى وعلى » (٤)

(١) رواه أحمد والبخاري بإسناد جيد .

(٢) رواه البخاري بإسناد لا بأس به .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

(٤) رواه مسلم وابن ماجه .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ستة لعنهم
ولعنهم الله وكل نبي مجاب : الزائد في كتاب الله عز وجل ، والمكذب
بقدر الله ، والمتسلط على أمتي بالجبروت ليدل من أعز الله ويعز من أذل
الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عترتي ما حرم الله ، والتارك
للسنة » (١)

وعن عمرو بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ
يقول : « انى أخاف على أمتي من ثلاث : من زلة عالم ، ومن هوى
متبع ، ومن حكم جائر » (٢)

(١) رواه الطبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد
ولا أعرف له علة .

(٢) رواه البزار والطبراني والترمذي .

الفصل الثالث

الطريق في جوهر الأخلاق

يقول رسول الله ﷺ :
«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»
ولقد أوحى الله تعالى ، منذ أن كانت الأديان - الأخلاق الكريمة
تتوالى على لسان رسله الأطهار ، وكان تمام هذه الأخلاق وكما لها إنما
هو : رسولنا وإمامنا ، صلوات الله وسلامه عليه :
ولقد وصفه الله تعالى ، بقوله :
«وإنك لعلی خلق عظیم»
ووصفه ، سبحانه ، بالرفقة والرحمة :
وحدد ، سبحانه ، طابع الرسالة الإسلامية بأنه الرحمة : فقال
سبحانه «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»
وقال ، صلوات الله وسلامه عليه :
«إنما أنا رحمة مهداة»
وعلى أساس من عناية الإسلام بالأخلاق الكريمة قامت دعوة
الصوفية إلى الأخلاق الفاضلة
ولقد حدد كثير منهم التصوف بأنه الأخلاق وقال سهل يحدد
التصوف :

«التصوف ليس رسماً ، ولا علماً ، ولكنه خلق :

لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة .

ولو كان علماً لحصل بالتعليم .

ولكنه تخلق بأخلاق الله .

ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم . ولقد ذكر الناس - عند سهل - الكرامات وأخذوا في الحديث عنها مكبرين لها مشيدين بأمرها فقال سهل :

وما الآيات ؟

وما الكرامات ؟ شيء ينقضى لوقته .

ولكن أكبر الكرامات ، أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود ، ويحمل سهل على المعاصي حملة مستفيضة ، ويقدم أمر الانتهاء عن المعاصي على عمل الطاعات .

يقول سهل :

ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله ، وفي ذلك يقول الله تعالى :
« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ^(١) »

ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب .

أما أعمال البر فإنه يعملها البر والفاجر .

وقال مرة أخرى : أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب

(١) النساء آية ٣١ .

المعاصي إلا صديق . والمعصية الكبرى ، المعصية التي يراها الصوفية أقبح المعاصي ، المعصية التي تقف بعقبة أمام كل تقدم في طريق الله هي ما عبر عنها سهل بقوله : « ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب »^(١) ولقد قبل له مرة :

ما أغرب الأشياء ؟

فقال : قلب عرف الله ثم عصاه »^(٢)

وإذا أقام العبد على معصية : فإن جميع حسناته تكون مجزوجة بالهوى ، لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص عن هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله تعالى .

ولقد صور الله تعالى - كما يذكر سهل - الطبائع المنحرفة ، ورسم طريق العلاج ، فطبع البهائم يصوره الله بقوله : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا »^(٣)

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »^(٤)

وطبيعة أهل الدنيا : اللهو ، واللعب ، والزينة ، والتفاخر ، والتكاثر : فكل حياتهم :

(١) الكوكب الدرية .

(٢) وفي ذلك يقول الله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم

الهدى : الشيطان سؤل لهم وأملئ لهم » ٢٥ من سورة محمد .

(٣) الحجر : ٣ . (٤) محمد : ١٢ .

« لعب وهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد
 واستعبد الله هؤلاء وأولئك - ليخرجهم من طباعهم إلى طبائع
 تنسأى - بالتسبيح والتقدس والتحميد والتكبير والشكر ، حتى يسلّموا
 من طبع الشياطين : اللهو واللعب ، ويقربوا من طبائع الملائكة ، يقول
 تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه ،
 وله يسجدون »^(١)
 ويقول سبحانه :

« وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته
 ولا يستخسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون »^(٢)
 ومن الناس من تكون طبيعته طبيعة السحرة ، طبيعة المكر
 والخذية ، ويقول الله عن هذه الطبيعة :
 « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »^(٣)
 ويقول سبحانه :

« يخادعون الله وهو خادعهم »^(٤)
 ويصور الله العلاج بالنسبة هؤلاء : لقد استعبدتهم الله بالافتداء
 بالنبي ﷺ ، بالنصيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ،
 والاستماعة بالله ، والصبر على ذلك إلى المات^(٥) .
 ومن الناس من طبيعته طبيعة الأبالسة ، وطبيعة الأبالسة : الإباء

(١) الأعراف : ٢٠٦ . (٤) النساء آية : ١٤٢ .

(٢) الأنبياء آية : ٢٠ ، ١٩ . (٥) حلية الأولياء .

(٣) الأنفال آية : ٣٠ .

والاستكبار ، يقول الله سبحانه عن إبليس :
«إلا إبليس أبى واستكبر» وعلاج الطبيعة الإبلسية : الدعاء ،
والتضرع والالتجاء إلى الله ؛ لقد استعبدهم بذلك حتى يسلّموا من طبع
الأبالسة :

« قل ما يعيؤ بكم ربي لولا دعاؤكم »^(١)
وأجب لهم الاعتصام بحبل الله : « واعتصموا بحبل الله جميعا
ولا تفرقوا »^(٢)

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم »^(٣)
على أن شيئين يذهبان خوف الله من قلب العبد : الدعوى ،
والمعصية وصاحب المعصية إذا خوفته واحتجبت عليه بالإيمان : ينقاد
ويخضع ، ويقر بالخوف . وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ، ولا ينقاد
للك خوف البتة .

ولا يوجد قلب أخلى من الخير ، ولا أقصى ولا أبعد من خوف
الله ، من قلب المدعى^(٤)

على أنه من الواجب أن ننتبه إلى الجهل الدينى ، فإنه من الأسباب
الكبرى فى المعاصى ، فإنه فى حقيقة الأمر إذا نظرنا إلى هؤلاء المؤثرين
للدنيا المنغمسين فيها ، المرتكسين فى مساراتها ، فإننا نجده الجهل :
يقوله سهل : « أصل الدنيا الجهل » وفرعها الأكل ، والشرب ،
والطيب ، والنساء ، والمال ، والتفاخر ، والتكاثر . وثمرتها المعاصى .

(١) الفرقان آية : ٧٧ . (٣) آل عمران آية .

(٢) آل عمران آية : ١٠٣ . (٤) حلية الأولياء .

وعقوبة المعاصي الإصرار .

وثمر الإصرار الغفلة .

وثمر الغفلة الاجترأ على الله .

يقول الله تعالى :

« كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »^(١)

واستمر سهل يستفيض في التحذير من المعاصي : منها ، ومعرفا ،
ومبينا ، ولقد آن لنا أن نتقل إلى الطاعات وبيانها على ما وضعه سهل
في أمرها :

إن الانغماس في الدنيا والارتكاس في موبقاتها شر :

« والدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ،
والعمل كله هباء منثور إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه : أنت منه
على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا »^(٢)

وينصح سهل من أراد الاتجاه إلى حياة الخير قائلا :

« لا تفتش عن مساوىء الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش
وابحث في أخلاق الإسلام : ما حالك فيه حتى تسلم ، ويعظم قدره في
نفسك وعندك ، وتجتهد في التلبس بتلك الأخلاق »^(٣)

فتش عن أخلاق الإسلام ، واجتهد في التلبس بها .

وأول ما ينبغى في ذلك : مخالفة الهوى ، ومخالفة الهوى - حسبها
يرى سهل - من أفضل ما عبد الله به .

(١) المطففين آية : ١٤ . (٢) الكواكب الدرية والحلية .

(٣) الحلية .

مخالفة الهوى في سبيل الله ؛ وما كانت مخالفة النفس في يوم من الأيام هدفا في نفسها ، إنها - في الوضع الديني السليم - ليست غاية ، وإنما هي وسيلة لتيسير سبيل الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع والتأسي برسول الله ﷺ ، إنها وسيلة تيسر الاستجابة إلى الله وسوله .

وإذا ما أراد الإنسان السير على الطريق المستقيم فينبغي أن :
يطهر العلم من الجهل بالاتباع والتأسي .
ويطهر الذكر من النسيان بعدم الغفلة .

ويطهر الطاعة من المعصية ^(١) بالانقطاع عن الشهوات المنحرفة .

بل إن الخروج من الشهوات - حسبما يرى سهل - خروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وأول ما ينبغى للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق ، وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المثوبة . والرفق في كل شيء . والحذر أن يميل في الهوى ، أو مع الهوى ، أو إلى الهوى .

ثم لا بد له من ثلاث أحوال آخر ، وفيها اكتساب : العلم العالی (أى العلم بالتوحيد) . والحلم . والتواضع .

ثم لا بد له من ثلاثة آخر وفيها اكتساب : المعرفة ، وأحلقا أهلها . السكينة ، والوقار . الصيانة والإنصاف . ولا بد لإحكام التعبد من : الحياء . وكف الأذى . وبذل المعروف . والنصيحة .

(١) الحلية .

الفصل الرابع الطريق في جوار التوبة

لقد احتل موضوع التوبة من نفس سهل مكاناً كبيراً .
وكان سهل على حق في اهتمامه بموضوع التوبة : وذلك أن أول
خطوة بخطوها الإنسان في معراجهِ إلى الله تعالى إنما هي التوبة الصادقة .
ولقد حث الله سبحانه وتعالى عليها يشق الأساليب ، وفتح سبحانه
أبوابها على مضاربها .

لقد أمر بها سبحانه في القرآن الكريم :
« وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »
وحث عليها في الأحاديث بأسلوب في غاية الجمال :
« يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب
جميعاً فاستغفروني أغفر لكم » .

وحث عليها رسول الله ﷺ في أساليب مؤثرة :
« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار .
ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .
ويقول صلوات الله عليه وسلامه :
كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .
أما من الناحية العملية الواقعية ، فإن رسول الله ﷺ كان يتوب

إلى الله ويستغفره كثيراً .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
« والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة ^(١) » .

وعن الأغر المزني رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة ^(٢) »
ويقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الأغر المزني - :
« يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنني أتوب إليه في اليوم مائة مرة ^(٣) » .

ويقول سبحانه : « إن الله يحب التوابين » .

والله سبحانه علق حبه على كثرة التوبة .

التوبة ولو لم يكن ذنب ، التوبة ولو لم تكن هفوة ، التوبة باعتبارها عبادة ، التوبة باعتبارها من الأبواب التي يدخل منها الإنسان إلى حب الله له .

وإذا معنا النظر في موضوع التوبة نجد أنه تلازم الإنسان طيلة حياته ، وإذا كانت مقامات السالكين إلى الله يسلم بعضها إلى بعض ، ويرتق الإنسان فيها من مقام ينتهي منه إلى مقام يسير فيه إلى غايته ليسلمه إلى مقام ثالث ؛ وهكذا ، فإن التوبة مقام أساسي يسلم إلى ما بعده ، ولكنه لا ينتهي وإنما يلزم الإنسان مهما ترقى في معراجة إلى

(١) رواه البخاري .

(٣) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم .

الله سبحانه . ومن أجل ذلك كان الواقع في حياة رسول الله ﷺ الاستمرار في التوبة ، يومياً بتوب صلوات الله وسلامه عليه توبة عبادة ، توبة تضرع ، توبة إنكسار إلى الله ، طلباً لمرضاته ، توبة تواضع وخشية ، توبة يدخل بها إلى حب الله سبحانه له . التوبة ؟ إنها شعار كل صادق في اتجاهه إلى الله .

وإذا كانت لم تأخذ حظها من الاهتمام عند بعض الناس فإنها ملكت على سهل شعوره ووجدانه ، وبلغ من أعميتها عنده أن أعلن أن :

« التوبة فرض على العبد في كل نفس » .

والواقع أنه إذا سار الإنسان في جو من الفهم الذي يتسم بسعة الأفق بعيداً عن يقود الألفاظ فإنه يستطيع أن يفهم من هذه الجملة أن المقصود بها أن يستمر الإنسان « متذكراً » لله سبحانه في جميع لحظاته وتكون على هذا الوضع « التوبة ذكر » .

وما هو الذكر إذا لم يكن تضرعاً إلى الله ومراعاة لحدوده أمراً ونهياً ؟ وما هي التوبة إذا لم تكن ذكر الله ومراعاة له في الحركات والسكنات ؟

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أولى الألباب فيذكر من صفاتهم أنهم : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم . . . » .

أى في كل أحوالهم ، أو . . . في كل أنفاسهم .
إنه إذا حسنت النية ، أمكن أخذ الأمور من أبواب رحابة الصدر ، وسعة الأفق .

ولكن هذه الكلمة الجميلة من سهل « التوبة فرض على العبد في كل نفس » أقامت عليه الدنيا وأقعدتها ، وما كان ذلك عن إخلاص ، كلا ، وإنما عن حسد ؛ يقول صاحب الكواكب الدرية : « وأكثر في الأرض من علوم الحقائق فحسده فقهاء بلده ، فنسبوه إلى عظام بسبب قوله :

« التوبة فرض على العبد في كل نفس » .

ولم يزالوا به حتى أخرجه وجماعته من البلد إلى البصرة فمات بها .
وتقول دائرة المعارف الإسلامية :

« ولا نعرف من حياة سهل التي كانت تشتم ، فيما يظهر بالهدوء واعتزال الناس ، إلا حادثة واحدة هي نفيه إلى البصرة ، إبان فتنة الزنج (حوالى سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م) حين أنكر علماء الأهواز قوله بأن التوبة فرض .

أمّا رأى سهل في التوبة في صورة واضحة فيثين من النصوص التالية التي تحدث فيها سهل عن التوبة :

قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً) .
قال : التوبة النصوح أن لا يرجع لأنه صار من جملة الأجنة ، والحب لا يدخل في شيء لا يحبه الحبيب .

وقال : علامة التائب أن لا تقله أرض ولا تظله سماء إلا هو متعلق بالعرش وصاحب العرش ، حتى يفارق الدنيا ، ولا أعرف في هذا الزمان أقل من التوبة ، إذ ليس منا أحد أتاه ملك الموت إلا ويقول : دعني أفعل كذا وكذا ، دعني أتنفس ساعة ، ثم قال : إن التائب

المخلص ، [تاج] ولو (كانت توبته) مقادر ساعة ولو مقدار نفس واحدة قبل موته .

وقال سهل : ليس شئ في الدنيا من الحقوق أوجب على المخلوق من التوبة ، فهي واجبة في كل لحظة ولحظة ، ولا عقوبة عليهم أشد من فقد علم التوبة ، فقليل : ما التوبة ؟ فقال : أن لا تنسى ذنبك .

وقال : أول ما يؤثر به المبتدئ التحول من الحركات المذمومة إلى الحركات الحمودة ، وهي التوبة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت ، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له الخلوة إلا يأكل الحلال ، ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى ، ولا يصح له أداء الحق إلا بحفظ الجوارح والقلب ، ولا يصح له ما وصفنا حتى يستعين بالله عز وجل على جميعه .

فقليل : ما علامة صدق التوبة ؟ قال : علامتها أن يدع ما له فضلاً عما ليس له .

ومثل سهل عن الرجل يتوب ويقطع من ذلك الذنب ثم يخطر ذلك بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيئ ، كيف الحيلة فيه ؟ فقال : وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول فيصير المحبوب مكروها ولكن يقهر عزم القلب فيرجع في ذلك إلى الله عز وجل ويرفع إليه شكواه ويلزم نفسه وقلبه الإنكار ولا يفارقه فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه ، قال : دعوا القال والقيل كله في هذا الزمان ، عليكم ثلاث : توبوا إلى الله عز وجل مما تعرفونه بينكم وبينه ، وأدوا مظالم العباد التي قبلكم فإذا أصبحتم

فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء ، وإذا أمسيتم قال تحدثوا أنفسكم بالصباح ، لأن الأحداث قد كثرت والخطر عظيم ، فاتقوا الله والزموا أنفسكم التوبة . وقال : التائب يتقى المعصية ويلزم الطاعة ، والمطيع يتقى الرياء ، ويلزم الذكر ، والذاكر يتقى العجب ويلزم نفسه التقصير . قيل : ما التوبة ؟ قال أن تبدل بدل الجهل العلم ، وبدل النسيان الذكر ، وبدل المعصية الطاعة ، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها . قال سهل : ما عصى الله تعالى أحد إلا يجهل ، ورب جهل أورث علماً ، والعلم مفتاح التوبة ، والإصلاح صحة التوبة ، من لم يصلح توبته فعن قريب تفسد توبته لأن الله تعالى يقول : « ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » .

وقال : « لا تصح التوبة لأحدكم حتى يدع الكثير من المباح مخافة أن يخرج به إلى غيره ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : « اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال ، كان رسول الله ﷺ يدعنا بعد الطهر ثلاثاً حتى تذهب فورة الدم » .

وقال : « التائب من يتوب عن غفلته في كل لحظة » ويقول : « ما من عبد أذنب ذنباً ولم يتب إلا جره ذلك الذنب إلى ذنب آخر ، وأنساه الذنب الأول ، وما من عبد عمل حسنة إلا أجرته تلك الحسنة إلى حسنة أخرى وبصره عقله تقصيره في الحسنة الأولى ، لكي يتوب من تقصيره في حسناته الماضية ، وإن كانت خالية صحيحة » .

الفصل الخامس

الطريق في جوار الإخلاص

تحتل فضيلة الإخلاص في الإسلام مكانة كبيرة : إنها من الأسس الأصيلة في قبول الأعمال مع الإيمان ، واتباع السنة ، ولن يقبل الله الأعمال ما لم تكن خالصة لوجهه .

ولقد وردت في ذلك آيات كثيرة ، وأحاديث عدة ، فمن الآيات قوله تعالى :

« ألا لله الدين الخالص » .

ولقد وردت في ذلك آيات كثيرة ، وأحاديث عدة ، فمن الآيات قوله تعالى :

« ألا لله الدين الخالص » .

فما لم يكن خالصاً فليس لله فيه نصيب ، أى لا يتقبله سبحانه ، ولا يشيب عليه ، وهو مردود في وجه صاحبه .

ويقول الله تعالى في حديث قدسى :

« أنا خير شريك ، من عمل لى عملاً وأشرك فيه غيرى ، تركته لغيرى » .

ويقول رسول الله ﷺ :

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام

الصلاة ، وآتى الزكاة : فارقها والله عنه راض .

وما من شك أن بين معنى كلمة « الإسلام » وكلمة « الإخلاص » صلة لا تنفصم ، فالإسلام هو أن يسلم الإنسان قلبه لله ؛ إنه إسلام الذات - ممثلة في القلب - لله وحده لا شريك له .

ولقد سئل رسول الله ﷺ ما هو ؟

فقال : أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

وهذا هو الإخلاص ؛ بل لقد سئل رسول الله ﷺ ، عن الإيمان ما هو ؟ فقال : الإخلاص .

ول هذه الأهمية لمعنى الإخلاص في الإسلام ، إهتم به الصوفية إهتماماً كبيراً ؛ وقد احتل في تفكير سهل مكانة تتناسب مع أهميته ؛ يقول سهل :

« نظر الأكياس في الإخلاص فلم يجدوا شيئاً غير هذا ، وهو أن تكون حركاته وسكناته في سره وعلايته لله عز وجل وحده لا يمازجه هوى ولا نفس . »

وإذا سألت سهلاً عن الإخلاص ما هو ؟

قال : الإجابة ، فمن لم تكن له الإجابة فلا إخلاص له .

وقال : الإخلاص على ثلاث معان :

إخلاص العبادة لله ، وإخلاص العمل له ، وإخلاص القلب له .

وليس أمر الإخلاص هيناً سهلاً ، فيما يرى سهل ، فلقد سئل :

أى شئ أشد على النفس ؟

فقال : الإخلاص .

قيل : ولم ذلك ؟

فقال : لأنه ليس للنفس فيه نصيب .

وقد يتنى الإخلاص عن الفروض نفسها ، بل عن الإيمان ، ولقد

سئل سهل عن ذلك :

هل يدخل الفرائض رياء ؟

فقال : نعم . قد دخل الإيمان الذى هو أصل الفرائض حتى أبطله ، وصار نفاقاً . فكيف العمل ؟ فكل من لم يحب أحد عليه فى ظاهره ، ويعلم الله خلافه من سره فى أى حال كان ، فهو المرائى الذى لا شك فيه .

ويحذر سهل كل التحذير من الرياء الذى به يتنى الإخلاص ، وكثيراً ما تحدث عن الرياء ، ومن ذلك ما يقوله بمناسبة تفسيره لقوله تعالى :

« الذين هم يراؤون » قال :

هو الشرك الخفى ، لأن المنافقين كانوا يحسنون الصلاة فى المساجد ، فإذا غابوا عن أعين المسلمين تكاسلوا عنها ، ألا ترى كيف أثبتهم أولاً مصلين . ثم أوعدهم بالوعيد ؟

واعلموا أن الشرك شركان : شرك فى ذات الله عز وجل ، وشرك فى معاملته ، فالشرك فى ذاته غير مغفور . وأما الشرك فى معاملته قال : نحو أن يخج ، ويصلى ، ويعلم الناس ، فيثنون عليه ، وهذا هو

الشرك الخفى ، وفى الخبر :

« أخلصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم إذا وصلتموه ، فإنه للرحم وليس منه شيء لله » .

وقد قال النبى ﷺ لمعاذ حين قال له : أوصنى يا رسول الله ؟ قال : أخلص لله يكفيك القليل من العمل » . ولقد تحدث عن حيل الشيطان ليفسد على الإنسان إخلاصه ، وذلك بمناسبة قوله تعالى : « من شر الوسواس الخناس » قال سهل : ما الوسوسة ؟ فقال :

كل شيء دون الله تعالى فهو وسوسة ، وإن القلب إذا كان مع الله تعالى فهو قائل عن الله تعالى ، وإذا كان مع غيره فهو قائل مع غيره ، ثم قال :

من اراد الدنيا لم ينج من الوسوسة ، ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء ، وهو ذكر الطبع ؛ فوسوسة العدو فى الصدور كما قال :

« يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » .

يعنى فى صدور الجن والإنس جميعاً ، ووسوسة النفس فى القلب ، قال الله تعالى : « ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

وإن معرفة النفس أخفى من معرفة العدو ، ومعرفة العدو أجلى من معرفة الدنيا ، وأسّر العدو معرفته ، فإذا عرفته فقد أسرته ، وإن لم

تعرف أنه العدو وأسرك ، فإنما مثل العبد ، والعدو ، والدنيا ، كمثل الصياد والطير والحبوب ، فالصياد إبليس ، والطير العبد ، والحبوب الدنيا ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع ، فإن كنت صائماً فأردت أن تفطر قال لك :

ما يقول الناس ؟ أنت قد عرفت بالصوم ، تركت البصيام .
فإن قلت : مالى وللناس ؟ قال لك :
صدقت أفطر ، فإنهم سيضعون أملك على الحسبة والإخلاص في فطرك .

وإن كنت عرفت بالعزلة ، فمخرجت .
قال : ما يقول الناس : تركت العزلة .
فإن قلت : مالى وللناس ؟
قال : صدقت ، أخرج فإنهم سيضعون أملك على الإخلاص والحسبة .

وكذلك في كل شيء من أملك يردك إلى الناس حتى كأنه ليأمرك بالتواضع للشهرة عند الناس .

ولقد حكى أن رجلاً من العباد كان لا يغضب ، فأتاه الشيطان وقال : إنك إن تغضب وتصير كان أعظم لأجرك ، ففطن به العابد .
قال : وكيف يحيى الغضب ؟ قال :
آتيك بشيء فأقول لمن هو ، فقل هو ، فأقول : بل هو ، فأتاه بشيء .

وقال العابد : هو .

فقال الشيطان : لا بل هولى .

فقال العابد : إن كان لك فاذهب به ، ولم يفضب .
فرجع الشيطان خائباً حزناً ، أراد أن يشغل قلبه حتى يصيب منه حاجته ، فعرفه واتفق غروره .

ثم قال سهل : عليك بالإخلاص- تسلم من الوسوسة « اهـ .
ونتين من النصين الآتين مدى تقدير الإخلاص فى رأس سهل .
سئل عن خير العبادات فقال :
« الإخلاص ، لقوله : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ^(١) » .

ويقول : « أفضل الطهارة أن يُطهَّر العبد من حوله وقوته ، وكل فعل أو قول لا يقارنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يتولاه الله عز وجل ، وكل قول لا يقارنه استثناء عوقب عليه ، وإن كان يراً ، وكل مصيبة لا يقارنها استرجاع لم يشب عليها صاحبها يوم القيامة » اهـ
وبعد : فإن الحديث الشريف الذى ابتدأ به الإمام البخارى كتابه العظيم : « الصحيح » يقول عنه بعض علثنا : إنه ريع الإسلام ، وهو :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(١) البية : هـ

وإذا كان الإخلاص يتدبّر بالنية فإنه - في الجو الإسلامي
يصاحب جميع الأعمال .

وإن من أعظم التبراهين على صدق الإسلام ، وعلى صدق الرسول
ﷺ ، هو هذه الأهمية الكبرى لفضيلة الإخلاص .

الفصل السادس

الطريق في جوامع المعراج

اتخذ الصوفية الاقتداء برسول الله ﷺ شعاراً لهم ، ولهذا الاقتداء كانوا صفوة أهل السنة ، ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو : علم « التصوف والإشارات » ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمي » من مشايخهم قريباً من ألف وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع : القدرية ، والروافض ، والخوارج .

وكيف يتصور فيه من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

وإن الاقتداء برسول الله ﷺ أساس أصيل اليوم لمعراج المؤمنين إلى الله ، بل لا أساس غيره ، وذلك أن الكتاب الوحيد الصادق الآن

للتدين إنما هو القرآن الكريم . . إنه :

١ - بالأسلوب الإلهي : هذا الأسلوب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه أسلوب هو تنزيل من لدن حكيم خبير عليم .

٢ - لم ينله تحريف ، فالقرآن الذي يتلوه المسلم الآن هو القرآن نفسه الذي كان يتلوه محمد ﷺ .

٣ - وهو لم ينله تحريف ولا تبديل ، لأن الله سبحانه ضمن حفظه :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

٤ - وليس في العالم الآن - شرقه وغربه - نص مقدس بالأسلوب الإلهي ، وليس في العالم الآن - شرقه وغربه - كتاب ديني إلا وقد ناله التحريف .

٥ - ومن أجل كل ذلك لا يتأق الآن المعراج إلى الله إلا عن طريق الإسلام ، وعن طريق القدوة برسول الله ﷺ ، وكل ما يقال الآن عن صوفية في الشرق أو في الغرب عن غير طريق الإسلام إنما هو تهريج من التهريج ، وزيف من الزيف . .

~ ~ ~

والتصوف - طريقاً وغاية - : هو معراج إلى الله .

كيف رسم سهل هذا الطريق في مقاماته :

إنه يعرف التصوف هذا التعريف الجليل :

التصوف ليس رسماً ولا علماً ، ولكنه خلق . لأنه لو كان رسماً

لحاصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم و رسم .
والإمام الغزالي يستفيض في شرح هذه الفكرة من زاويتها العلمية فيقول :

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل .
وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتزهد عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم . مثل قوت القلوب الأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » (١) .

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ومنشؤه بالعراق . وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له : القواريري . وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور . وكان يفتى في حلقاته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين ٢٩٧ . قال الروذباري : سمعت الجنيد يقول لرحل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل .

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة ، والذي يسرق ويرزى أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أدخلوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها . ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها .

وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتنى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

والشبل^(١) ، وأبى يزيد البسطامي^(٢) ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام شايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشيع وأسبابها وشروطها وبين أن يكون صحيحاً وشيعان ، وبين أن يعرف حد السكر

= وقال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (عن الرسالة القشيرية) . .

(١) بغدادى المولود والمنشأ ، وأصله من (أسروشنه) . صحب الجنيد ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً . مالكى المذهب ، عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وقبره ببغداد .

وكان الشبل إذا دخل رمضان جد فوق جد من عاصره ويقول هذا شهر عظمة ربي فأنا أول من يعظمه .

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين ، قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين . .

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فأنصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه . ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في الهواء فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف تجددونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود الشريعة (انظر الرسالة القشيرية) .

وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أنجرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا . فعملت يقينا أنهم أرباب الأحوال لأصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

إن التصوف ليس علماً نسبياً وليس بحثاً دراسياً ، وتلك حقيقة تبدو واضحة في هؤلاء الذين يكتبون كثيراً عن التصوف من المستشرقين ، أو من الباحثين الجامعيين الذين يدرسون التصوف من الخارج على أنه شكل من الأشكال أو رسم من الرسوم . . كلا ، إن التصوف ليس كذلك ، ولأنه شيء آخر فإن كل من كتبوا عنه على أنه شكل قد أخطأهم التوفيق . . وإن ما كتبه المستشرقون عن التصوف إنما يعطى صورة لضلال الطريق إلى الحقيقة .

أما سهل رضي الله عنه فإنه يقسم طلاب الحق من مبدأ الأمر إلى :

١ - مرادين .

٢ - مرادين .

ويذكر ذلك بمناسبة الآية الكريمة :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »^(١)
وكان من الممكن أن يذكر ذلك أيضاً بمناسبة الآية الكريمة :
« الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب »^(٢) . .
بل إن هذه الآية الأخيرة أصرح . .

يقول سهل عن الآية الأولى :

إن الله ميز بين المرید والمراد في هذه الآية وإن كان الجميع من عنده ، وإنما أراد أن يبين موضع الخصوص من العموم ، فخص المراد في هذه السورة وغيرها ، وذكر المرید وهو موضوع العموم في هذه السورة أيضاً ، وهو قوله تعالى :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه »
فهو قصد العبد في حركاته وسكونه إليه ، كما قال :
« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة » .

فكل من وجد حال المرید والمراد فهو من فضل الله عليه ، ألا ترى أنه جمع بينهما في قوله تعالى :

« وما بكم من نعمة فمن الله » .

قيل له : فما الفصل بينهما ؟

فقال : المرید للذي يتكلف القصد إليه والعبادة لله تعالى ويطلب الطريق إليه ، فهو في الطلب بعد . .

والله تعالى له بها ، والرجل يجد في نفسه ما يدل على

(٢) الشورى : ١٣ .

المريد والمراد يدخل في الطاعات وقتاً يجد ما يحمله على الأعمال من غير تكلف وجهد ، نظراً من الله تعالى له ، ثم يخرج بعد ذلك إلى علو المقامات ، ورفع الدرجات . .

قيل له : ما معنى المقامات ؟

قال : هي موجودة في كتاب الله تعالى في قصة الملائكة :

« وما منا إلا له مقام معلوم » وقال :

« ولكل درجات مما عملوا » . .

وقال في صفة المريد :

« شغل المريد إقامة الفرض ، والاستغفار من الذنب ، وطلب السلامة من الخلق » .

وقال سهل :

« إن الله عز وجل ينظر في القلوب والقلوب عنده ، فما كان أشدها تواضعاً له خصه بما شاء ، ثم بعد ذلك ما كان أسرعها رجوعاً ، وهما هاتان الخصلتان .

وقال : ما اطلع الله على قلب فرأى فيه هم الدنيا إلا مقتته ، والمقت أن يتركه ونفسه .

وقال : القلب لا يملكه أحد إلا الله تعالى ، ولا يطيع أحداً إلا الله . فإذا ذكرت به فضع شرك مع الله ، فإنه ليس من أحد وضعت شرك عنده إلا هتكه إلا الله عز وجل .

ومن أوائل ما يبدأ به سهل الحديث عن مقتضيات كلمة التوحيد

إذا قيلت بحق : إنه يقول :

فن قال لا إله إلا الله فقد بايع الله ، فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه في شئ من أمره ونهيه ، في سره وعلايته ، أو يوالى عدوه ، أو يعادى وليه .

ولكن الاستجابة لله ولرسوله يقف في طريقها حجب : ويتحدث سهل مرة أخرى في بيان هذه الحجب ، فيقول : إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء بلطائف الحكمة ، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته فلم يحجبهم بشئ .

ويستفيض سهل مرة أخرى في بيان هذه الحجب فيقول : الحجب السبعة التي تحجب الإنسان عن ربه عز وجل :
فالحجاب الأول : عقله ، والثاني : علمه . والثالث : قلبه .
والرابع : خشيته . والخامس : نفسه . والسادس : إرادته . والسابع : مشيئته .

فالعقل : باشتغاله بتدبير الدنيا . والعلم : بمجاهاته مع الأقران .
والقلب : بالغفلة . والخشية : بإغفالها عن موارد الأمور عليها .
والنفس : لأنها مأوى كل بلية . والإرادة : إرادة الدنيا والإعراض عن الآخرة . والمشيئة : بملازمة الذنوب .

ويقول عن فتح القلب :

لا يفتح الله قلب عبد فيه ثلاثة أشياء : حب البقاء ، وحب الغنى ، وهم غد . .

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير من نفسه ؟
قال : إذا لم يروقتا غير الوقت الذى هو فيه .
ومن الحجب أركان إبليس ، ولإبليس أركان سبعة ، يقول
سهل : لإبليس سبعة أركان فى سبع مراتب ، بها ينال ولد آدم إلا من
عصمه الله :

أوله : ما لا يعنى . ثم المعصية جملة . ثم الإصرار عليها . ثم
الغضب بالسرعة . ثم الحقد إذا طال مكثه فى القلب . والاستخفاف .
وقلة أقدار الناس عنده . فإذا بلغ - المرة - هذا فلا تسأل عما وراء
ذلك .

فلما سئل سهل عن قوله : لا يعنى ، قال :
من اشتغل بشيء لا يعنيه من أمر آخرته نال منه العدو حاجته ،
فكيف غيره ؟
ثم قال : « من تلفظ بلسانه شيئاً مما لا يعنيه لم يوفق للصواب
فيما يعنيه » .

وكل من خاض فى الباطل لم يقم بالحق إذا لزمه أو نزل به . وكذا
حكم الله .

إن أهل الباطل لا يوفقون للرشد والحق ، تدخل الأشياء على
الفارغ ، فأما المشغول فهو فى مزيد .

ثم قال سهل :

أحسنوا جوارنكم الله عليكم ، فإنها مازالت عن قوم فكادت ترجع
إليهم ، ولا يطلع على عثرات الخلق إلا مغل جاهل ، ولا يهتك ستر

ما أطلع عليه إلا ملعون .

ومن هذا الوادى ما يقول سهل : ما نظر واحد إلى نفسه فأفلح ، ولا أدعى لنفسه حالاً فم له ، والسعيد من صرف نفسه عن أفعاله وأقواله ، وفتح له سبيل الفضل والإفضال ، ورؤية منة الله عليه في جميع الأفعال .

ولكن مهما تعددت الحجب فإنه — كما يقول سهل — ليس بين العبد وربّه حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من الذلة والانكسار .

وسهل يتحدث أكثر من مرة عن الدعوى وعن المدعين ، ويبدو أن سهلاً ضاق به نفساً فأخذ ينفس عن ضيقه في هذه الكلمات القوية عن المدعين ، وهو على حق في كل ما كتبه عن هذه الفئة التي أضرت بالإخلاص وبالخلق في كل زمن ، ومن ذلك ما يقول :

أدنى الدعوى أن يلزمه اليوم حق من حقوق الله : إما ذنب يتوب منه أو بر ، فيقول : غداً أعمل ، ولا يكون المدعى خائفاً أبداً ، ومن لم يكن خائفاً — أى يخاف الله — لا يكون أميناً ، ومن لم يكن أميناً لم يطلع على الخزانة ، وما من أحد ادعى إلا وقد ضيع حقوق الله من وجهين :

وجه من الظاهر ، ووجه من الباطن .

وقال : المذنب بإقراره بالذنب يسأل العفو فهو مطيع ، والمدعى للطاعة هو عاص لأنه يحكم لنفسه ما لم يحكم الله عز وجل له . وهناك شيطان يذهبان خوف الله من قلب العبد أصلاً : الدعوى

والمعصية ، وصاحب الدعوى لا يقر بالحق .
وقال : لا أعرف في الدنيا قوماً أرواح أبداناً من الذين يدعون هذا
الطريق - طريق التصوف - هم في روح وسرور ، لأنهم أسقطوا عن
أنفسهم العبودية واستراحوا ، فلا ضرباً يضربون ، ولا تحرك يحركهم .
هم أشد من الزنادقة ، لأن الزناديق تضربه وتحركه ، وهم يتكلمون
في وجدان القلوب ويتلذذون به ويكذبون ، ويغتابون ، ويفجرون
ولا يبالون ، فضلوا وأضلوا . .

وقال : حكم المدعى أنه تصحبه هذه الثلاثة الخصال :
تصحبه التزكية لنفسه وقد نهى عن ذلك ، وجهله بنعم الله عليه ،
وجهله بجماله .

وقال : أصل الهلاك الدعوى ، وأصل الخير الافتقار .

التقوى

ولا مخلص من كل ذلك إلا بالتقوى .

ويعلم سهل في صراحة أنه :

« لا تصلح التقوى إلا للمقتدى بالنبي ﷺ ، وبالصحابة .

ويقول سهل في جمال جميل بمناسبة قوله تعالى :

« هو أهل التقوى وأهل المغفرة »

يعنى هو أهل أن يتقى فلا يعصى ، وأهل المغفرة لمن يتوب ؛

والتقوى هى ترك كل شئ مذموم ، فهى فى الأمر ترك التسويف ، وفى

النهى ترك الفكرة ، وفى الآداب مكارم الأخلاق ، وفى الترغيب كتمان

السر ، وفى الترهيب اتقاء الوقوف عند الجهل ، والتقوى هى : التبرى

من كل شئ سوى الله ، فمن لزم هذه الآداب فى التقوى فهو أهل

المغفرة .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »

فيقول :

والمتقون هم الذين تبهروا من دعوى الحول والقوة دون الله تعالى ،

ورجعوا الى اللجأ والافتقار الى حول الله وقوته فى جميع أحوالهم ،

فأعانهم الله تعالى ورزقهم من حيث لا يحتسبون ، وجعل لهم فرجا

ومخرجاً مما ابتلاهم الله به .

وإذا ما كانت القوى كان العمل :

أما العمل فإن لسهل فيه نظرية عميقة ، إنه يقول :

« ولا تصح التقوى إلا للمقتدى بالنبي ﷺ وبالصحابة » .

ويقول - فيما رواه محمد بن الحسن -

« أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصي إلا صديق »

وقال سهل : « من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله ،

فهو غافل »

ويقول : « ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من

اجتنب ما نهى عنه الله صار حبيب الله ، ولا يجتنب الآثام إلا صديق

مقرب .

وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر » ويقول سهل عن المؤمنين بالنسبة

للعمل : « المؤمنون الذين وعدهم الله الجنة على ثلاث مقامات : واحد

آمن وليس له عمل فله الجنة ، وآخر آمن وليس له إثم وعمل صالحاً

وهذا في صفة : « قد أفلح المؤمنون » .

والثالث : آمن ثم أذنب ، ثم تاب وأصلح ، فهو حبيب الله فله

الجنة .

والرابع : آمن وأحسن وأساء ، يتبين لهم عند الموازنة ، والله تعالى

فيهم مشيئة والعمل الصالح ما كان خالياً من الرياء ، مقيد بالسنة كما

يقول سهل ولا بد أن يكون العمل الصالح مبنياً على الإيمان والعلم

والإخلاص .

يقول سهل : « الإيمان بالفرائض وعلمها فرض والعمل بها فرض ، والإخلاص فيها فرض ، والإيمان بالسنن فرض بأنها سنة وعلمها سنة والعمل بها سنة ، والإخلاص فيها فرض ، والإخلاص بالإيمان العمل به » .

ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى : « ليلوكم أيكم أحسن عملا » قال : « أى أصوبه وأخلصه ، فإذا كان صوابا ، لم يكن خالصا لم يقبل ، وإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون صوابا خالصا ، والخالص الذى يكون لله تعالى بارادة القلب ، والصواب الذى يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب » .

ويقول الله تعالى :

« أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »

ويفسر سهل ذلك فيقول :

أضافهم الى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح ، معناه لا يصلح لى الا ما كان خالصا لى لا يكون لغيرى فيه أثر وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله تعالى وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه .

الذِّكْر

ومن العمل : الذكر .

ولقد سبق أن كتبنا في استفاضة عن الذكر في كتابنا « العبادة »
وكتبنا عنه في استفاضة في كتاب خاص بعنوان : « فادكروني
أذكركم » .

وذلك أن من أهم الطرق الموصلة الى الله : الذكر ، وقد حث عليه
القرآن الكريم ، وحث عليه الرسول ﷺ ، وهو عماد السبل المؤدية الى
القرب .

ولقد هدد الله سبحانه الغافلين عن ذكره فقال :

« ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً ^(١) » .

ويقول سهل في شرح ذلك :

« قد حكم الله أنه لا يعرض عبد عن ذكره وهو أن يرى بقلبه شيئاً

سواه ساكناً إياه إلا سلط الله عليه شيطاناً ليفضله عن طريق الحق
ويغريه » .

ويقول سهل عن الذكر :

« حياة القلب الذي يموت بذكر الحي الذي لا يموت » .

إن الذين أعطاهم الله تعالى فهم القرآن هم خاصة الله وأوليائه لا

(١) الزخرف آية : ٣٦ .

هم للدنيا ولا الدنيا منهم في شيء ، ولا فيها في الجنة رغبتوا أخذ منهم الدنيا فلم يبالوا ووهبها لهم فردوها كما ردها نبيهم ﷺ ، لما عرضت عليه ، طرحوا أنفسهم بين يديه رضا وسكونا إليه ، وقالوا : لا بد لنا منك أنت أنت لا نريد سواك ، فهم المتفردون بالله ، كما قال النبي ﷺ سيروا سير المتفردين إلى رحمة الله .

قالوا : ومن المتفردون يا رسول الله ؟

قال : الذين اهتموا بالذكر لله تعالى ، يأتون يوم القيامة خفافا قد حط الذكر عنهم أثقالهم قال سهل : هم المشايخ المستهترون ^(١) في الذكر لله تعالى مجالسون كما قال النبي ﷺ يقول الله تعالى :

« أنا جليس من ذكرني ، حيث ما التمسني وجدني .

وقال تعالى : « فأبينا تولوا فثم وجه الله » ^(٢)

ويرى سهل أن الآية القرآنية الكريمة :

« فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » ^(٣) »

تشير - مع معناها - إلى القلب ، إنه يقول :

الإشارة في البيوت إلى القلب فنها ما هو عامر بالذكر ، ومنها ما هو

خرب بالغفلة ، ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من الظلم » .

والذاكر على الحقيقة هو - فيما يرى سهل - من يعلم أن الله

(١) المستهترون : بفتح التاءين هم المكثرون من الذكر .

(٢) البقرة : ١١٥ . (٣) الفل ٥٢ .

مشاهده فیراه بقلبه قریبا منه فیستحی منه ، ثم یؤثره علی نفسه وعلی کل شیء من جمیع أحواله .

ویقول : « من انتقل من نفس إلی نفس بغير ذکر فقد ضیع حاله »
ولکن الخاتمة الجمیلة الّتی نختتم بها موضوع الذکر عند سهل می
قوله :

« من انتقل من نفس إلی نفس بغير ذکر ، فقد ضیع حاله »

فقال : اكتبوها كما قال عبدى ^(١) »

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - فيما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه - ان رسول الله ﷺ :

« حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعصّلت بالملكين ^(٢) فلم يدريا كيف يكتبانها ؟ فصعدا إلى السماء ! فقالا :

ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها ؟

قال الله وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدى ؟
قالا : يارب إنه قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك . فقال الله لهما : اكتباهما كما قال عبدى حتى يلتقاني فأجزيه بها »

ويقول سهل فى الحمد :

« ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، والنعمة التى ألهم بها الحمد أفضل من النعمة الأولى ، لأن بالشكر يستوجب المزيد »

(١) رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه إلا أنها قالوا : « كما يجب ربنا ويرضى » .
(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الذكر والدعاء » ومعنى عصّلت : صعب عليهم تقدير ثوابها .

الحمد

ومن الذكر : الحمد :

والحمد لله هو مفتتح سورة الفاتحة : نردده معها كل يوم أكثر من مرة في سجودنا ، وهو من جملة الباقيات الصالحات التي أعلن عنها رسول الله ﷺ وهي : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ،

عن أنس رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ ، جالسا في الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ؛ فرد رسول الله ﷺ :
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما جلس الرجل قال :

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، كما يحب ربنا أن يحمد وينبغي له .

فقال له رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبي ﷺ :

« والذي نفسي بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كلهم حريص على أن يكتبها ، فما ذرّوا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذي العزة ،

الشكر

ويتصل بالحمد : الشكر

ويقول الله تعالى :

« لئن شكرتم لأزيدنكم »^(١) ويقول سهل : « أدنى الشكر أن لا

تعصيه بنعمه ومرة أخرى يقول بهذا المعنى : أول درجات الشكر :
الطاعة .

وحينما فسر سهل قوله تعالى : « قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك

التي أنعمت علي »^(١)

قال : أي ألهمني التوبة والعمل بالطاعة . ونقول في النهاية مع

سهل :

« ليس للعبد أن يتكلم إلا بأمر سيده وأن يبطش إلا بأمره وأن يمشي

إلا بأمره ، وأن يأكل وينام ويتفكر إلا بأمره ، وذلك أفضل الشكر

الذي هو شكر العباد لسيدهم » .

ويسلم الذكر والحمد والشكر إلى التوكل .

ويزعم بعض الناس أن العمل الكسب يناق التوكل ، فما حكم

الدين ؟

لقد رأى سيدنا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بعض الناس ،

(١) المل ١٩ .

ولاحظ أنه لا يبدو عليهم أنهم من أهل العمل والكسب ، فسألهم : من أنت ؟

فقالوا : متوكلون .

فقال : كذبتُمْ ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل : من ألقى حبة في الأرض وتوكل على الله ، إن الجو الإسلامي كله ، ينادى بالعمل والكفاح ، في سبيل الرزق والقوت ، وبين أن العمل والكفاح لا يتنافى والتوكل ، بين ذلك من الناحية النظرية ، ومن الناحية التطبيقية .

أما الناحية النظرية ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من

رزقه (١) » .

ولقد استفاض ، رسول الله ﷺ ، في بيان وجوه الكسب ، وبما ورد في ذلك ما رواه أبو داود ، عن أنس رضي الله عنه ، أن رجلا من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله ، فقال النبي له :

« أما في بيتك شيء ؟ »

قال : بلى حلس - وهو نوع من الكساء - نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب - وهو قدح للشراب - نشرب فيه الماء .

فقال رسول الله ﷺ :

« ائتنى بهما »

فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ ، بيده وقال :

« من يشتري من هذين ؟ »

(١) الملك ١٥ .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله ﷺ :

« من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاها إياه ، فأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصارى وقال : « اشتر بأخذهما طعاماً فأنبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به » .

فأتاه . فشد رسول الله ﷺ عوداً بيده . ثم قال :

« اذهب فاحتطب وبيع ولا أرينك خمسة عشرة يوماً »

ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشتري ببعضها ثوباً ، وبعضها طعاماً ؛ فقال له رسول الله ﷺ :

هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة »

هذا من الناحية النظرية .

وماذا عن العمل من الناحية التطبيقية ؟

روى البخارى رضى الله عنه : « أن المهاجرين حينما قدموا المدينة

آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع .

فأراد سعد وكان من أكثر الانصار مالا ، أن يشاطر عبد الرحمن

ماله .

فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك .

ثم سأل عن السوق فدلوه عليه ، فذهب وباع واشترى ، ثم عاد

ومعه بعض السلع وتابع الأمر من الغد .

وبعد قليل جرى المال في يده فتزوج واستقل في بيت وأصبح فيما بعد من أكثر المسلمين أموالا ومن أكثر المسلمين صدقة »

وهذا أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه لما بوع بالخلافة أصبح ذاهبا إلى السوق ليتاجر كعادته ، فلحق به الصحابة وتكاثروا عليه ليمنعوه قائلين : كيف تفعل ذلك وقد أفتت لخلافة النبوة ؟ فقال رضى الله عنه : لا تشغلونى عن عيالى فإنى إذا ضيعتهم كنت لغيرهم أضيع ففرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

ويستحيل أن يقال : إن الصديق ، او عبد الرحمن بن عوف لم يكونا متوكلين ، فمن أولى إذن بالتوكل منها .

والمثل الأعلى للكفاح الدائب الدائم إنما يتمثل في رسول الله ، صلّى الله عليه وآله ، وهذا الكفاح الدائب الدائم كان يصاحبه التوكل ويسبقه في كل مشروع ويستمر بعده المشروع لأنه سبحانه :
« إليه المصير »

ولأن الوضع عند المؤمن هو ما عبر الله عنه :

« إليه يرجع الأمر كله »

والمؤمن مؤمن بقوله تعالى :

« ولله عاقبة الأمور »

وقد سبق أن كتبنا عن التوكل عند سهل ، وهذه نصوص له في

التوكل :

إنه يقول : « التوكل » الاسترسال مع الله على ما يريد .

ويقول : « ما التوكل ؟ »

التوكل طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والتبرى
من الحول والقوة .

ويقول : « من طعن في التوكل ، فقد طعن في الإيمان » .

قال تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ^(١) »

وهذه المقامات لا يستقيم أمرها ، ولا يقر لها قرار إلا إذا تحلى
الإنسان بفضيلة :

(١) المائدة ٢٣ .

الصبر

وقد تحدث سهل عن الصبر أكثر من مرة في استنفاضة أحيانا ، وفي إيجاز أحيانا أخرى .

ومن أجمع أحاديثه عن ذلك ما يلي .
قيل : ما الصبر ؟

قال : لا عمل أفضل من الصبر ، ولا ثواب أكثر من ثواب الصبر ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا تقوى إلا بالصبر ، ولا معين على الصبر لله إلا الله عز وجل .

قيل : الصبر من الأعمال ؟

قال : نعم الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد ، لا يصلح أحدهما إلا بصاحبه .

قيل : ما أجل الصبر ؟

قال : أجله انتظار الفرج من الحق .

قيل : فما أصل الصبر ؟

قال : مجاهدة النفس على إقامة الطاعات وأدائها بأحكامها وحدودها ومكابدتها على اجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها .

قيل : والناس في الصبر كيف هم ؟

قال : الناس في الصبر صنفان ، فصنف يصبرون للدنيا حتى ينالوا

منها ما تشتهي أنفسهم فهو الصبر المذموم ، وصنف يصبرون للآخرة طلبا
لثواب الآخرة وخوفا من عذابها .

قيل : فالصبر للآخرة هو على نوع واحد أو على أنواع .

قال : الصبر للآخرة له أربع مقامات . فثلاث منها فرض ، والرابع
فضيلة : صبر على طاعة الله عز وجل ، وصبر عن معصيته ، وصبر على
المصائب من عنده ، أو قال : صبر على أمر الله عز وجل ، وصبر على
نفيه ، وصبر على أفعال الله عز وجل ، فهذه ثلاث مقامات منه وهي
فرض ، والمقام الرابع فضيلة ، وهو الصبر على أفعال المخلوقين ، قال الله
تعالى :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير
للصابرين »

أذن بالمثل وفضل الصبر ، ثم قال : « واصبر وما صبرك إلا بالله »
ولا يعين عليه إلا هو ، والقمة النفيسة في الصبر أن يصاحبه : الرضى
وحينا يشرح سهل قوله تعالى : « فصبر جميل » يقول : الصبر مع
الرضا . قيل : وما علامته ؟ قال : أن لا يجزع فيه . فسئل : بأى شيء
يحصل التجمل بالصبر ؟

قال : بالمعرفة بأن الله تعالى معك ، وبراحة العافية ، فإنما الصبر
مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل ، ثم قال :
عجبت ممن لم يصبر ، كيف لم يصبر للحال ورب العزة يقول :
« إن الله مع الصابرين »

• • •

إن ما سبق هو بعض منازل السائرين إلى الله التي تسلم إلى الولاية ،
وقبل أن نتحدث عن الولاية نروى عن سهل ما يلى ، زيادة في إيضاح
الفكرة عن منازل السائرين للحق سبحانه :

« بادروا بالتوبة من السيئات حتى تأمنوا العقوبة ، وتبصروا أحباب
الله ، فإن الله يحب التوابين » .

ويقول : « إن الأمراض والأسقام ، والأحزان والمصائب : إنما
هى كفارات للصغائر ، وأما الكبائر فلا يسقطها إلا التوبة ، ومثله كمثل
حبر يصيب الثوب فلا يقلعه إلا الصابون الحاد ، والمعالجات بالخل
والاشنان وغيره .

ومثل الصغائر كمثل قليل دبس^(١) يصيب الثوب يذهب الريق ،
وقليل من الماء فليل : يا أبا محمد أليس قد روى أن المصائب كفارات
وأجر؟ فضحك ، وقال : إن المصائب إذا ضم إليها الصبر والاحتساب
تكون كفارة وأجرأ كلاهما ؛ فأما إذا لم يصبر عليها ولم يحتسبها تكون
كفارات وحططا لا أجر فيها ولا ثواب :

وبيان ذلك أن المصائب فعل غيرك ولا تثاب على فعل غيرك ،
وصبرك واحتسابك فعل لك فتؤجر وتثاب .

وقيل : أى العمل يعمل حتى يعرف عيوب نفسه ؟ قال :

لا يعرف عيوب نفسه حتى يحاسب نفسه فى أحواله كلها .

قيل : فأى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟

قال : إذا ترك التدبير .

(١) ما يسيل من الرطب .

قيل : فأى منزلة إذا قام بها أقام الصديق ؟
 قال : إذا توكل عليه فيما أمره به ونهاه عنه «
 ويقول رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى :
 « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » يقول :
 « العبادة زينة العارفين ، وأحسن ما يكون العارف إذا كان فى
 ميادين العبودية والخدمة يترك ماله لما عليه » .
 ويقول : « لا يكمل للعبد شئ حتى يصل علمه بالخشية ، وفعله
 بالورع ، وروعه بالإخلاص ، وإخلاصه بالمشاهدة ، والمشاهدة بالتبرى
 مما سواه » .
 وكان يقول : يلزم الصوفى ثلاثة أشياء :
 حفظ سره ، وصيانة فقره ، وأداء فرضه » .

الولاية

يقول الله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ^(١) »
قد حدد الله سبحانه الولي بأنه المؤمن المتقي .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم كشأنه دائما في اتخاذ القرآن والسنة ، إماما له فيقول : « الولي من توات أعماله على الموافقة » وقال :
« من أسلم قلبه لله تولى الله جوارحه »

ويتحدث سهل عن الأولياء ودرجاتهم بمناسبة تفسيره للآية القرآنية الكريمة : التي صدرنا بها هذا الموضوع فيقول : هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ :

« إذا رُؤوا ذكر الله ، وهم المجاهدون في الله ، السابقون إليه ، الذين توات أفعالهم على الموافقة ، أولئك هم المؤمنون حقا .

وقال : اجتمع الخَيْر كله في هذه الأربعة وبها صاروا أبدالاً :
أخص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت .
قيل له : لم سمي الأبدال أبدالاً ؟

فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل في

(١) يونس ٦٢ - ٦٤ .

سرهم ، هم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ، فهم أبداً في المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال .

وما دام الإيمان يزيد وينقص فهناك إذن درجات في الولاية ، وسم هذه الدرجات بأى اسم شئت ، فإنه كما يقول الأصوليون : لا مشاحة في الاصطلاح .

والأمر في هذا التقسيم ، وفي التسمية لا يثير جدلاً إلا عند من ديدنهم الجدل ، فإنه مادام هناك زيادة ونقص فهناك درجات ، ومادام هناك درجات فإنه يمكن وضع أسماء لهذه الدرجات والله سبحانه قسم أولياءه إلى درجات كثيرة يقول سبحانه :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً ^(١) »

ومن أولياء الله المتقون ، والأوابون ، والصابرون والمحسنون ، والمقربون ، والسابقون والسابقون ، وهكذا .

وإذا استولى الله ولياً علمه .

(١) النساء : ٦٩ ، ٧٠ .

ومن طرائف ما يروى فى ذلك حادثة الإمام الشعرانى مع الإمام
الخواص :

لقد كان الإمام الشعرانى رضى الله عنه يمر بالإمام الخواص - وهو
أُمى - يجد الناس تلتف حوله وتسأله ، وكان الإمام الشعرانى - قبل
اتخاذ الإمام الخواص شيخا له - يضيق بذلك ذرعا فيقول فى مواجهة
الخواص ، وعلى مسمع من الناس :

« ما اتخذ الله من ولى جاهل »

وتكرر ذلك والإمام الخواص لا يلتفت إليه .
وفى يوم من الأيام التفت إليه فى هدوء وقال له :

« يتخذه ويعلمه »

وبدأ الإمام الشعرانى العالم يتقرب شيئا فشيئا إلى الإمام الخواص
الأمى ، وانتهى الأمر بأن اتخذ شيخا وكتب عنه هذا الكتاب النفيس
المسمى :

« نرة الخواص فى أجوبة الخواص » .

ومن هذا القبيل يقول الإمام سهل :

« إن الله تعالى ما استولى ولِيا من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن ،
إما ظاهرة وإما باطنا ، قيل له :

إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟

قال : فهمه ، وإن فهمه هو المراد .

قال أبو بكر السجزي : سمع منى هذه الحكاية الجنيد فقال :
صدق سهل كان عندنا ببغداد عبد أسود أعجمى اللسان نسأله عن

القرآن آية آية فيجيبنا عن ذلك بأحسن جواب وهو لا يحفظ القرآن ،
وتلك دلالة ولايته »

ومع ذلك فإن سهل - وهو الإمام المتزن - يحذر الأولياء فيقول :
« لو أن واحدا دخل بستانا فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير
يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا ولي الله ، فلو لم يخف أنه مكر
لكان ممكورا .

وأعلى درجات الولاية هي درجة الصديقية .

ولقد سئل سهل عن هذه الدرجة فأخذ يتحدث عنها وعن أخلاق
الذين ارتقوا بتوفيق الله إليها ، وعن أخلاق الأولياء على وجه العموم .
لقد سئل : من الصديقون ؟

فقال : الذين عدوا أنفاسهم بالتسبيح والتقديس ، وحفظوا
الجوارح والحواس فصار قلوبهم وفعلهم صدقا ، وصار ظاهريهم وباطنيهم
صدقا ، وصار دخولهم في الأشياء وخروجهم عنها بالصدق ،
ومرجعهم إلى مقعد صدق بقدوم صدق عند ملك مقتدر .

ومن أخلاقهم - كما يروى عنه أبو محمد الحريري - يقول :
« من أخلاق الصديقين ألا يعلفوا بالله ، لا صادقين ولا كاذبين ،
ولا يغتابون ولا يغتاب عندهم . ولا يشبعون بطونهم ، وإذا وعدوا لم
يخلفوا ، ولا يتكلمون إلا والاستثناء في كلامهم ، ولا يميزحون أصلا .
وبمناسبة تفسير سهل لقوله تعالى : « وما رزقناهم ينفقون »

يقول : « إن الله تعالى وصف بذلك من جبله بجبله متعلقا بسبب
من سببه غير منفك عن مراقبته ، وهم الذين لم يختاروا قط اختيارا ،

ولا أرادوا شيئاً دونهُ ، ولا اختياراً . ون . يا : لهم ، كما اختاره لهم ،
ولا أرادوا شيئاً يصرفهم عنه ، ومن : خبره هم مبرءون .
ويصابح الولاية في جميع مراحلها .

الحب لله

وقد تحدث الله سبحانه أنه : « يحب التوابين » و « يحب المتطهرين » و « يحب المحسنين » وهكذا .

ومفهوم سهل في المحبة مفهوم دقيق ، إنه يقول : « المحبة أن تحب ما يحبه حبيبك ، وتكره ما يكره » ويرى سهل أن الحب لله يلزمه الخوف ، والمحبة لا يفارقه الخوف ، ومن هنا يروى عن سيدنا أبي بكر أنه قال :

« لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة » .

ويقول سهل : « النيران أربعة : نار الشهوة ، ونار الشقاوة ، ونار القطيعة ، ونار المحبة .

فنار الشهوة تحرق الطاعات ، ونار الشقاوة تحرق التوحيد ، ونار القطيعة تحرق القلوب ، ونار المحبة تحرق النيران كلها .

ولقد حكى أن علي بن الحسين رضي الله عنه دخل مغارة مع أصحاب له فرأى امرأة في المغارة وحدها .

فقال لها : من أنت ؟

قالت : أمة من إماء الله إليك عني لا يذهب الحب .

فقال لها علي رضي الله عنه : وما الحب ؟

قالت : أخفى من أن يُرى ، وأين من أن يخفى كمنه في الحشاء
ككمن النار في الحجر ، إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، ثم
أنشأت تقول :

« إن الحيين في شغل لسيدهم

كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا »

ولقد قيل لسهل : أى شيء يفعل الله بعبده إذا أحبه ؟

قال : يلهمه الاستغفار عند التقصير ، والشكر له عند النعمة :

ويقول : قال الله لآدم : يا آدم إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا

غير فضلى ، وخاف غير عدلى لم يعرفنى ، يا آدم إن لى صفوة وضئان ،

وخيرة من عبادى ، أسكنتهم صلبك ، بعينى من بين خلقى ، أعزهم

بعزى ، وأقربهم من وصلى ، وأمنحهم كرامتى ، وأبيع لهم فضلى ،

وأجعل قلوبهم خزائن كتبى ، وأسترهم برحمتى ، وأجعلهم أمانا بين

ظهرانى عبادى ، فيهم أمطر السماء ، وبهم أنبت الأرض ، وبهم

أصرف البلاء ، وهم أوليائى وأحبائى .

درجاتهم عالية ، ومقاماتهم رفيعة ، وهمهم بى متعلقة . صحت

عزائمهم ، ودامت فى ملكوت غيرى فكرتهم فارتفعت قلوبهم بذكرى ،

فسقيتهم بكأس الأنس صرف محبتى ، فطال شوقهم إلى لقائى ، وإنى

إليهم لأشد شوقا ،

يا آدم من طلبنى من خلقى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى .

فطوى يا آدم لهم ثم طوى لهم ثم طوى لهم وحسن - مآب .

يا آدم هم الذين إذا نظرت إليهم هان على غفران ذنوب المذنبين

لكرامتهم على «اهـ .

وبعد : فإننا نختم هذا بهذه الكلمة الجميلة لسهل :
« طوبى لمن تعرف بالأولياء ، فإنه ربما استدرك ما فاتته من
الطاعة ، وإن لم يستدرك شفعوا فيه ، لأنهم أهل فتوة »

الفصل السابع

الطريق من زاوية الولاية والكرامات

سبق أن تحدثنا في بعض كتبنا عن الكرامات ، وأنها مذكورة ، في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية الشريفة .
والواقع أن الخلاف الذي يثار في هذا الموضوع عادة إنما هو في إثبات كرامة معينة لشخص معين . وهذا الخلاف أمره هين ، ومن أنكر كرامة معينة وقعت بالنسبة لشخص معين ، فليس معنى ذلك أنه أنكر الكرامات جملة ؛ وإثبات الكرامات محل اتفاق بين أهل السنة .
ويتحدث سهل عن الكرامات وعن الأولياء في كثير من النصوص المتناثرة هنا وهناك ، وحديثه عنها يتسم بالجد وبالعمق ، وهو يتحدث عن تجربة ومشاهدة ، ويتحدث عن منطق وعقل .
وتأمل أولاً ما يقول سهل : « أظهر الله تعالى آياته لأوليائه ، وجعل السعيد من عباده من صدقهم على كراماتهم ، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك ، وصرف قلوبهم عنه ، ومن أنكر آيات الأولياء ، فإنما ينكر قدرة الله تعالى ، فإن القدرة تظهر على الأولياء الآيات ، لا هم بأنفسهم يقدرون على إظهارها ، كما قال :

« ويريكم آياته ، فأى آيات الله تنكرون »

ويتحدث سهل - عن مخالطة ومشاهدة - عن بعض الكرامات

فيقول :

« مخالطة الولي بالناس ذلّ ، وتفردّه عزّ ، وما رأيت أولياء الله تعالى إلا منفردين ؛ إن عبد الله بن عبد الله بن صالح رحمهم الله ، كان رجلاً له سابقة جلييلة ، وموهبة جزيلة ، وكان يفرّ من بلد إلى بلد ، حتى يأتي مكة ، فطال بها مقامه فقلت له :

لقد طال مقامك بها ؟ فقال : ولم لا أقيم بها ، ولم أربقة ينزل فيها من الرحمة والبركة مثلها ؟ يطوف الملائكة حول البيت غدوة وعشية ، على صورشتي ، لا يقطعون ذلك ، وإن فيها عجائب كثيرة ، ولو قلت كلما رأيت : لصغت عنه قلوب أقوام ليسوا بمؤمنين .

فقلت : أسألك بحق الحق ، أن تخبرني بشيء من ذلك ؟ فقال : ما من وليّ لله تعالى صحت ولايته إلا وهو يحضر في هذه البلد في كل ليلة جمعة ؛ ولقد رأيت رجلاً يقال له مالك بن القاسم الجيلي رحمه الله تعالى ، ليلة هاهنا ، ورأيت على يده غمراً فقلت : إنك لقريب العهد بالأكل ؟ فقال :

أستغفر الله فإني منذ أسبوع لم أطمع شيئاً ، ولكنني أطمعت والدتي وأسرعت لأدرك صلاة الفجر هاهنا جماعة ، وبين مكة وبين الموضع الذي جاء منه سبعائة فرسخ ، فهل أنت مؤمن بذلك ؟ فقلت : بلى . فقال : الحمد لله الذي أراني مؤمناً .

وقال ابن سالم : كنت عند سهل رحمه الله تعالى ، فأتاه رجلان بعد صلاة العصر وجعلوا يتحدثان ، فقلت في نفسي : لقد أبطأ عنده ، وما أراهما يرجعان في هذا الوقت ، وذهبت إلى منزلي لأهين لهما

عشاء ، فلما رجعت إليه لم أرعنده أجداً فسألت عن حالها فقال :
« إن أحدهما يصلى المغرب بالشرق والآخر بالمغرب ، وانما اتيانى
زائرين » اهـ .

ولقد سئل سهل مرة عن كيفية إدراك منزلة الكرامات فقال :
« من زهد فى الدنيا أربعين يوماً صادقاً مخلصاً فقد ظهرت
الكرامات من الله عز وجل له ، ومن لم تظهر له فهو لما فقد من زهده
من الصديق والإخلاص » اهـ .

ولكن من هم الأولياء ؟ يتحدث سهل عن ذلك بمناسبة قوله
تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) قال
سهل :

« هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ ، إذا رثوا ذكر الله ، وهم
المجاهدون فى الله ، السابقون إليه ، الذين توالى أفعالهم على الموافقة ،
أولئك هم المؤمنون حقاً .

وقال : اجتمع الخير كله فى هذه الأربعة ، وبها صارو أبدالاً :
أشخاص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصبوت .

قيل له : لم سمي الأبدال أبدالاً ؟
فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الخيل فى
سرهم ، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ،
فهم أبدال فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

(١) يونس ٦٢ .

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال ۝

وقال بمناسبة قوله تعالى : أم على قلوب أقفالها ^(١) ؟ :
« إن الله تعالى خلق القلوب وأقفل عليها بأقفال ، وجعل مفاتيحها حقائق الإيمان فلم يفتح بتلك المفاتيح على التحقيق إلا قلوب المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وأنبيائه ، والصديقين وأوليائه .
وسائر الناس يخرجون من الدنيا ولم يفتح أقفال قلوبهم .
والزهاد والعباد والعلماء خرجوا منها وقلوبهم مقفلة ، لأنهم طلبوا مفاتيحها في العقل ففصلوا الطريق ، ولو طلبوه من جهة التوفيق والفضل لأدركوه ، والمفتاح أن تعلم أن الله قائم عليك ، رقيب على جوارحك ، وتعلم أن العمل لا يكمل إلا بالإخلاص مع المراقبة .
ولقد تحدث سهل عن الأنبياء والأولياء معا في مواضع من تفسيره فقال :

« وما من أحد في الدنيا إلا غلبه إبليس لعنه الله فأسره ، إلا الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصديقون الذين شاهدت قلوبهم إيمانهم في مقاماتهم ، وعرضوا لإطلاع الله عليهم في جميع أحوالهم ، فعلى قدر مشاهدتهم يعرفون الابتلاء ، وعلى قدر معرفتهم الابتلاء يطلبون العصمة ، وعلى قدر فقرهم وفاقتهم إليه يعرفون الضر والنفع ، ويزدادون

(١) محمد ٢٤ .

علما وفهما ونظراً .

ثم قال : ما حمل الله على أحد من الأنبياء ما حمل على نبينا محمد - ﷺ - من الخدمة ، وما من مقام خدمة الله تعالى بها من ولد آدم عليه السلام إلى أن بعث نبينا - ﷺ - إلا وقد خدم الله بها نبينا - ﷺ -

وقال بمناسبة قوله تعالى : « السابقون السابقون » (١)

« هم الذين سبق لهم من الله الاختيار والولاية قبل كونهم ، المقربون في منازل القرب وروح الأنس ، وهم الذين سبقوا في الدنيا : فسبق الأنبياء إلى الإيمان بالله ، وسبق الصديقون والشهداء من الصحابة وغيرهم إلى الإيمان بالأنبياء » .

وقال سهل : « انتهت هم العارفين إلى الحجب فوقفت مطرقة ، فأذن لها بالدخول فدخلت فسلمت ، فخلع عليها خلع التأيد ، وكتب لها من الرقع براءات .

وإن همم الأنبياء صلوات الله عليهم جالت حول العرش فألبست الأنوار ، ورفع منها الأقدار ، واتصلت بالجبار ، فأفنى حظوظها ، وأسقط مرادها ، وجعلها متصرفة به له .

وقال : آخر درجات الصديقين أول الأحوال للأنبياء صلوات الله عليهم ، وإن نبينا - ﷺ - عبد الله تعالى بجميع أحوال الأنبياء . وبمناسبة قوله تعالى : « وأدخلني برحمتك في عبادك

الصالحين » (٢) قال :

(٢) المل ١٩ .

(١) الواقعة ١٠ .

يعنى ارزقنى قربة أوليائك لأكون من جملتهم ، وإن لم أصل إلى مقامهم »

أما مهمة الأولياء فإن سهلاً يتناسق في تحديدها مع مهمة الرسل ، وهى الاقتداء برسول الله في نشر الدعوة النبوية ، والجهاد في سبيلها ، إنه يقول :

« إن الله تعالى أخذ على أوليائه التذكرة لعباده ، كما أخذ التبليغ على أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين .

فعلى أولياء الله أن يدلوا عليه ، ففى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين »

ومع ذلك فأرجو أن يتدبر القارئ الكريم قول سهل ، وقد سئل عن الكرامات فقال : « وما الكرامات ؟ إن الكرامات شئ ينقضى لوقته ، ولكن الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود »

وقال له تلميذه عبد الرحمن بن أحمد :
يا سيدى : ربما أتوضأ فالماء الذى يسيل من أعضائى يصير قضبانا من الذهب والفضة ؟

فقال له : أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطوا خشخاشة يشغلون بها ؟

ونختم هذه النصوص بقوله عن الرسول - ﷺ - وقد سئل عن معنى قوله - ﷺ - « إني لست كأحدكم ، إن رى يطعمنى ويسقبنى » فقال :

« ما كان معه طعام ولا شراب ، ولكنه كان يذكر خصوصيته عند الله تعالى ، فيكون كمن أكل الطعام وشرب الشراب » .
وما من شك في أن رأى سهل فيما سبق رأى موفق ، إنه يتلخص في :

١ - لا شك في أن الكرامات ثابتة بقدره الله تعالى وواقعة لبعض الناس .

٢ - والكرامات في نفسها على الخصوص تشجيع للمبتدئين في العروج إلى الله .

٣ - وأفضل الكرامات هي التخلي عن الأخلاق المذمومة ، والتخلي بالأخلاق الحميدة .

الفصل الثامن

متناثرات عن الطريق في الحكم والمواعظ والنصائح والتوجيهات

لسهل بن عبد الله مجموعة ضخمة فيما يتصل بإرشاد الناس في صورة موعظة أو حكمة أو توجيه أو نصيحة ، نذكر منها ما تيسر دون ترتيب معين . .

قال سهل : أيما عبد قام بشيء مما أمره الله به من أمر دينه فعمل به وتمسك به فاجتنب ما نهى الله تعالى عنه عند فساد الأمور ، وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس في الرأي والتفريق إلا جعله الله إماما يقتدى به هاديا مهديا قد أقام الدين في زمانه وأقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الغريب في زمانه ، الذي قال رسول الله - ﷺ فيه : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل في شيء من السنة وكانت نيته متقدمة في دخوله لله إلا أخرج الجهل من سره شاء أو أبى بتقدمه النية ، ولا يعرف الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم ، سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا الحسن النحاس جارا ، يقول سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : الفترة غفلة ، والخشية بقطة ، والقسوة موت .

وقال : الغضب أشد على البدن من المرض ، لأنه إذا غضب

دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل عليه من المرض ، ولهذا قال المصطفى
- ﷺ - : « لا تغضب » وكرره

وقال : ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب .
وقال : الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكران ، والمصر
هالك .

وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى .

وقال : مخالطة الفقير للناس ذل ، وبعده عنهم عز .

وقال :

الفتن ثلاثة : فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من
الرخيص ، والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق في وقت
فيؤخروه .

وقال : الابتلاء كالمرض يمرض الواحد مائة سنة فلا يموت ،
ويمرض آخر ساعة فيموت .

وقال عثمان بن محمد العثماني ، سمعت أبا بكر محمد بن يحيى بن أبي
بدر يقول ، سمعت أبا محمد سهل بن عبد الله ، يقول : الانقطاع من
الشهوات : الخروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ،
ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وقال : شيثان يذهبان خوف الله من قلب العبد : أصل الدعوى
والمعصية . وصاحب المعصية إذا خوفته واحتججت عليه بالإيمان ينقاد
ويخضع ويقر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ولا ينقاد
للخوف البتة ، ولا يوجد قلب أخلى من الخير ولا أقصى ولا أبعد من

خوف الله من قلب المدعى..

وقيل له : ما أغرب الأشياء ؟

قال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقال : اجتنب صحبة ثلاثة أصناف : الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال : إن الله قال لآدم : أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا غير فضلى ، وخاف غير عدلى ، لم يعرفنى .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول :

من كمل إيمانه ، لم يخف من شيء سوى الله تعالى .

وسمعه يقول : لزوم الباب طلب العبد إلى مولاه أن يشبه على الإيمان ويقبضه عليه .

قال : وسمعت سهل بن عبد الله ، يقول : من تخلى من الربوبية وأفرد الله بها ، واعترف بالعبودية وعبد الله بها ، استحق من الله الملك الاعظم فى حياة الأبد ، ومن نازع الله ربوبيته قصمه الله ، ألا ترى انهم يحبون الغنى ، والله هو الغنى وهم الفقراء ، ويحبون الأمر والنهى ، والله تعالى يقول : « ألا له الخلق والأمر » ، ويحبون البقاء ، والله تعالى يقول ، « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك » ، ويحبون الدنيا والله يغيضها ، ويريدونها والله لا يريدوها ، فهم ينازعون الله الربوبية ويعادونه فيما أحب .

قال : أزهد الناس أصفاهم مطعما ، وأعبد الناس أشدهم اجتهداً فى القيام بالأمر والنهى ، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه .

والطهارة على سبعة أوجه : طهارة العلم من الجهل ، وطهارة الذكر من النسيان ، وطهارة الطاعة من المعصية ، وطهارة اليقين من الشك ، وطهارة العقل من الحمق ، وطهارة الظن من التهمة ، وطهارة الإيمان مما دونه .

وقال : فساد الدين بثلاث : الملوك إذا أخذوا في السرف والشهوات ، والعلماء إذا افتروا بالرخص ، والقراء إذا تعبدوا بغير علم ، وإن العلماء يحتاج اليهم الخلق في الدنيا والآخرة .

وقال : قوام الدين والدنيا في ثلاث : العلم والأدب والمبادرة ، وهلاك الدين والدنيا في ثلاث : الجهل والخرق والكسل .

وقال : أربع من دعائم الدين : القيام بالحق على نفسك وغيرها والقيود عن باطل نفسك وغيرها ، والمودة لأهل طاعة الله ، والبغض لأهل معصيته .

وفى قوله تعالى : (الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم) قال : من أراد حفظ القرآن فليختم بثلاث ختمات على شرط : ختمة قائماً يصلى ، وختمة قاعداً يدرس ، وختمة مضطجعا على جنبه ، فإنه لا ينسى إن شاء الله عز وجل .

ومن اشتغل بطلب العلم بالتقوى ، وقراءة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، واتباع السنة ، واجتناب اللهو ، لم تصبه الأمراض والأسقام . ومن أطاع الله بالعلم وصدق النية لم يفقد عقله .

وقال : ليس للعبد حيلة سوى أن يواظب في جميع عمره على قول : رب

سَلِّمْ سَلِّمْ ، الأمان الأمان ، الغوث الغوث .
 وإياك والتدبير فإنه داء النفس ، وإليك بالاعتداء فإنه أساس
 العمل ، وإياك والعجب فإن أدنى باب منه لم تستنمه حتى تدخل
 النار ، وإليك بالقنوع والرضى ، فإن العيش فيها ، وإياك والانتثار على
 غيرك فإنه لينسيك نفسك ، وإليك بالصمت فأنت تعرف الأحوال
 فيه ، وإليك بترك الشهوات تنقطع به عن الدنيا ، وإليك بسهر الليل
 تموت نفسك من ميلة طبعك ونحي قلبك ، وإذا صليت فاجعلها
 وداعاً ، وخف الله يؤمنك ، وارجه يؤملك ، واتكل عليه يكفك ،
 وإليك بالخلوة تنقطع الآفات عنك .

ولقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : لولا مخافة الوسواس لرحلت
 إلى بلاد لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟
 وقال : ما من عبد أراد الله بعزم صحيح إلا زال عنه كل شيء
 دونه ، وما من عبد زال عنه كل شيء دونه إلا حق عليه أن يقوم
 بأمره ، وليس في الدنيا مطيع لله وهو يطيع نفسه ، ولا يتباعد أحد عن
 الله إلا بالاشتغال بغير الله ، وإنما تدخل الأشياء على الفارغ ، وأما من
 كان مشغول القلب بالله لم تصل إليه الوسوسة وهو في المزيد أبداً واحفظ
 نفسك بالأصل . قيل له : ما هو ؟ قال : التسليم لأمر الله ، والتبري
 ممن سواه .

وفى قوله تعالى « وفديناه بذبح عظيم » قال : إبراهيم عليه الصلاة
 والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية تداركه من الله فضله وعصمته
 حتى أمره بذبحه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وإنما كان

المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب ، فلما خلاص السر له ورجع عن عادة الطبع فداه بذبح عظيم .

وفى قوله سبحانه : « إن هذا هو البلاء المبين » قال يعنى بلاء رحمة ألا ترون كيف بعثه على الرضا .

وعن قوله تعالى (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله) قال : أى ممن دل على الله وعلى عبادته وسنة رسوله ﷺ ، واجتناب المناهى ، وإدامة الاستقامة مع الله ، والاستقامة مع الله ، والاستقامة به خوفاً من الخاتمة ، وفى الطريقة الوسطى والحاددة المستقيمة التى من سلكها سلم ، ومن تعداها ندم .

من استغنى بغير الله فبغناه افتقر ، ومن اغتر بغيره فبعزه ذل ، ألا ترى أن الله يقول : (إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً) .

وفى قوله تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء) قال : معرفة السر كله فى الفقر وهو سر الله ، وعلم الفقر إلى الله تعالى تصحيح علم الغنى بالله عز وجل والله سبحانه وتعالى أعلم .

وعن قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) قال : هى كلمة لا إله إلا الله فإنها رأس التقوى ، ثم قال خير الناس المسلمون ، وخير المسلمين المؤمنون ، وخير المؤمنين العلماء العاملين ، وخير العاملين الخائفون ، وخير الخائفين المخلصون المتقون الذين وصلوا إخلاصهم وتقواهم بالموت ، فإن مثله كمثل راكب السفينة بالبحر لا يدرى ينجم منه أم يغرق فيه ، والذين تم لهم ذلك أصحاب رسول الله ﷺ بقوله : وألزمهم كلمة التقوى .

وفى قول الله سبحانه : « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين »
قال : يعنى ففروا مما سوى الله إلى الله ، وفروا من المعصية إلى
الطاعة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن عذابه إلى رحمته ، ومن سخطه
إلى رضوانه ، وقد قال النبي - ﷺ - « أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ فَهَذَا أَيْضًا بَابٌ
مِنْهُ عَظِيمٌ .

وقال سهل : تربة المعاصي الأمل ، وبذرهما : الحرص ، وماؤهما
الجهل ، وصاحبها الإصرار ، وتربة الطاعة المعرفة ، وبذرهما اليقين ،
وماؤهما العلم ، وصاحبها السعيد المفوض أموره إلى الله تعالى .
وقال : لا يطلع على عثرات الخلق إلا جاهل ، ولا يهتك ستر ما
أطلع عليه إلا ملعون .
وقال :

من علم أن الله قريب منه فقد بعد عن كل ما سواه .
وقال :

دع التدبير والاختيار لله الواحد القهار ، فإن تدبير الخلق لأنفسهم
هو المكدر لعيشهم .
وقال : من اشتغل بما لا يعنيه نال العدو منه حاجته في يقظته
ومنامه .

وقال سهل : الأمل أرض كل معصية ، والحرص بذر كل
معصية ، والتسويق ماء كل معصية . والندم أرض كل طاعة ، واليقين
بذر كل طاعة ، والعمل ماء كل طاعة ، ويقدر ما تهدم من دنياك تبني
لآخرتك ، ويقدر ما تخالف نفسك وهواك وشهوتك ترضى مولاك

وبقدر ما تعرف عدوك وعداوته - يعنى إبليس - تعرف ربك .
وقال : وسمعت سهلا يقول : إذا جنك الليل فلا تأمل النهار حتى
تسلم ليلتك لك ، وتؤدى حق الله فيها ، وتنصح فيها لنفسك ، فإذا
أصبحت فكذاك .

وقال : الفرح كله فى تدبير الله لعباده .
وكان . رضى الله عنه . يقول : مخالطة الولي للناس ذل ، وتفرد
عنهم عز . وقلما رأيت وليا لله عز وجل الا منفردا .
وكان . يقول : من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين الله فهو
غافل .

وكان يقول : قد أيسر العلماء فى زماننا هذا من هذه الثلاث
خصال : ملازمة التوبة ، ومتابعة السنة ، وترك أذى الخلق .
وكان يقول : العيش على أربعة أقسام : عيش الملائكة فى
الطاعة ، وعيش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى العلم ، وانتظار
الوحي ، وعيش الصديقين فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالما أو
جاهلا زاهدا كان أو عابدا فى الامتناع والشرب والضرورة للأنبياء عليهم
الصلاة والسلام ، والتموم للصديقين ، والقوت للمؤمنين ، والمعلوم
للبيهائم .

وكان يقول : من سلم من الظن سلم من التجسس ، ومن سلم من
التجسس سلم من الغيبة . ومن سلم من الغيبة سلم من الزور ، ومن سلم
من الزور سلم من البهتان .
وكان رضى الله عنه . يقول : الله قبله النية ، والنية قبله القلب ،

والقلب قبلة البدن ، والبدن قبلة الجوارح ، والجوارح قبلة الدنيا .
وكان يقول : لا يستحق الانسان الرياسة حتى يصرف جهله عن
الناس ويحمل جهلهم ، ويترك ما في أيديهم ويبدل ما في يده لهم .
وقال : لا يستحق الرجل الرياسة على الخلق إلا إن احتمل أذاهم
وبذل لهم ما بيده وزهد فيما بيدهم .

وقال : دخلت الفتنة على العامة من الرخص والتأويلات ، وعلى
العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر .
ومن كلامه رضى الله عنه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا
انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لم تنفعهم الندامة .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : ما طلعت شمس ولا غربت على
أهل الأرض إلا وهم جهال بالله ، إلا من يؤثر الله على نفسه وزوجته
ودنياه وآخرته ، وأدنى الأدب أن يقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن
يقف عند الشبهة .

وكان يقول : إن الله مطلع على القلوب في ساعات الليل والنهار ،
فأبما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس .
وقال سهل : لا تستصغرشينا من الذنوب وإن قل فإنهم قالوا :
أربعة بعد الذنب أشد من الذنب ، الإصرار ، والاستبشار ،
والاستصغار ، والافتخار .

وقد قال ابن مسعود - رضى الله عنها - : إن المؤمن يرى ذنوبه
كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الكافر يرى ذنوبه كذبابة
وقعت على أنفه فقال هكذا بيده فطارت .

قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) قال : لما نزلت هذه الآية خطب رسول الله - ﷺ - فقال في خطبته :
« ألا وإن الدنيا عرض جاضر يأكل منه البر والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضى فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معرضون على أفعالكم (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

قال ابو الدرداء رضى الله عنه : إتمام التقوى أن يتقى الله عبده حتى يتقيه في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما : يكون حجابا بينه وبين الحرام .

سمعت أبا الحسن بن جهضم يقول : حدثني طاهر بن الحسن ، قال : سمعت ابراهيم البرجى يقول : سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : ما أظهر عبد فقره إلى الله في وقت الدعاء في شيء يحل به إلا قال الله ملائكتك : لولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبتك : لييك .

وقال : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى .

وقال : اذا قام عبد بما يجب لله عليه قام الله بما يجب عليه من الحقوق .

سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن المنذر الهجيمي ، يقول ، قال سهل بن عبد الله : الخلق كلهم بالله يأكلون ، وفى عبادته غيره يشركون .

وقال سهل : من دق الصراط عليه في الدنيا عرض عليه في الآخرة ، ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق له في الآخر . سمعت أبا الحسن يقول : سمعت محمد بن المنذر يقول سمعت سهل ابن عبد الله يقول وسأله رجل ، فقال : يا أبا محمد إلى من تأمرني أن أجلس ؟ فقال له : إلى من تكلمك جوراحه لا من يكلمك لسانه . وقال : الخشية سر ، والخشوع علانية ، من خشعت جوراحه لم يقربه الشيطان . قيل فما الخشوع ؟ قال : الوقوف بين يدي الله ، والصبر على ذلك .

قال : وكما الخشوع ، ترك الآثام في السر والعلانية . يقول : كفى الله العباد ذنباهم ، فقال عز من قائل : « أليس الله بكاف عبده » واستعبدهم بالآخرة ، فقال : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » . وفي قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أندادا » قال سهل : أى أضدادا ، فأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء ، المنطلقة إلى حظوظها ومنها بغير هدى من الله .

وقال : البلوى قسمان : بلوى رحمة ، وبلوى عقوبة . فبلوى الرحمة ، تبعث صاحبها على إظهار مقره وفاقته إليه تعالى . وترك تدبير نفسه واختياره . وبلوى العقوبة ، تبعثه على اختيار نفسه وتدبيرها . وسئل عن الاسم الأعظم ، فقال :

أرونى الأصغر أريكُم الأعظم ، أسماء الله كلها عظيمة ، أصدق
ونخذ أى اسم شئت يفعل معك » .

وسئل كيف يتخلص العبد من خدعة نفسه وعدوه ؟ قال :
يعرف فيما بينه وبين الله ، وبعد عرفان حاله فيما بينه وبين الله يعرض
نفسه على الكتاب والأثر ، ويقتدى فى الأشياء بالسنة » .

وقال : الغضب أشد فى البدن من المرض : إذا غضب دخل عليه
من الإثم أكثر مما يدخل عليه فى المرض » .

وقال : الله معنا قريب إلينا ، فلا بد لنا من أن نكون معه ، تؤثره
ونطيعه ، فيكون إثارنا له صدقنا بعلمنا فيه » .

ويقول : إن الله يطلع على أهل قرية أو بلد ، فيريد أن يقسم لهم
من نفسه قسما ، فلا يجد فى قلوب العلماء ولا فى قلوب الزهاد موضعا
لتلك القسمة من نفسه ، فيمن عليهم : أن يشغلهم بالتعب عن
نفسه » .

يقول الله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل » فمثل ما الدنيا ؟ فقال :
الدنيا كلها جهل إلا موضع العلم ، والعلم كله حجة إلا موضع
العمل به ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، والإخلاص لا يتم
إلا بالسنة ، ثم قال : دنياك نفسك ، فإذا أفنيتها فلا دنيا لك .

وقال : السرور بالله هو السرور ، والسرور بغيره هو الغرور » .
وكان يقول : « إذا خلا العبد من الدنيا وهرب من نفسه إلى الله
وسقط من قلبه أثر الخلاق لم يعجبه شيء ، ولم يسكن إلى شيء غير الله
قط ، فالله مؤنسه ومؤدبه وكالته وحافظه وجليسه وأنيسه : إياه

يناجي ، وله يناجي ، وله ينادي ، وبه يستأنس ، وإليه يرغب ، وإليه يستريح .

قال الله جل ذكره :

طوبى لمن خلقتَه فعرفني ، ودعوته فأجابني ، وأمرته فأطاعني ، ورزقته فحمدني ، وأعطيته فشكرني ، وابتليته فصبر لي . وعافيته فذكرني ومدحني .

وقال : خلق الله الإنسان على أربع طبائع : طبع البهائم ، وطبع الشياطين ، وطبع السحرة ، وطبع الأبالسة ؛ فمن طبع البهائم : البطن والفرج قال تعالى : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ^(١) » .

وطبع الشياطين : اللهو واللعب والزينة والتكاثر والتفاخر ، قوله تعالى :

« لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ^(٢) » .
ومن طبع السحرة المكر والخديعة :
« ويمكرون ويمكر الله ^(٣) » .

« يجادلون الله وهو خادعهم ^(٤) » .

ومن طبع الأبالسة الإباء والاستكبار ، قوله تعالى :

« إلا إبليس أبى واستكبر ^(٥) » .

واستعبد الله العباد بالتسبيح والتقديس والتحميد والشكر ، حتى

(٤) النساء : ١٤٢ .

(١) الحجر : ٣ .

(٥) البقرة : ٣٢ .

(٢) الحديد : ٢٠ .

(٣) الأنفال : ٣٠ .

يسلموا من طبع الشياطين اللهو واللعب يقول في كتابه :
« إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله
يسجدون ^(١) » .

وقوله : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون ^(٢) » .
ومن طبع السحرة استعبدتهم الله بالافتداء بالنبي - ﷺ -
بالنصيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والتفضل ،
والاستعانة بالله والصبر على ذلك إلى المات .
ومن طبع الأبالسة استعبدتهم الله بالدعاء والصراخ والتضرع
والالتجاء :

« قل ما يعزبكم رنى لولا دعاؤكم ^(٣) » .
يسلم به العباد إذ يعتصمون به .
وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ^(٤) » .
« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ^(٥) » .
حتى يسلموا من طبع الأبالسة .
وكان يقول : أصل الدنيا الجهل ، وفرعها الأكل والشرب ،
واللباس ، والطيب والنساء ، والمال والتفاخر والتكاثر ، وثمرتها المعاصي
وعقوبة المعاصي الإصرار ، وثمرة الإصرار الغفلة ، وثمرة الغفلة
الاستجاء على الله .

(٤) آل عمران : ١٠٣ .

(٥) آل عمران ١٠٢ .

(١) الأعراف : ٢٠٩ .

(٢) الأنبياء : ٢٠ .

(٣) الفرقان : ٧٧ .

وقال : النية اسم الأسامي ، والطاعات أسامي ، والنية الإخلاص ، وكما ثبت حكم الظاهر بالفعل كذلك يثبت حكم السر بالنية . ومن لا يعرف نيته لا يعرف دينه ، ومن ضيع نيته فهو حيران ، ولا يبلغ العبد حقيقة علم النية حتى يدخله الله في ديوان أهل الصدق ويكون عالما بعلم الكتاب وعلم الآثار وعلم الاقتداء .

وينصح سهل من يحيطون به فيقول لهم : حققوا الخير بالفعل .

· قيل له : وكيف لنا أن نحققه بالفعل ؟

قال : بخمسة أشياء ، لا بد لكم منها :

أكل الحلال ، ولبس الحلال ، وحفظ الجوارح ، وأداء الحقوق كما أمرم به ، وكف الأذى عن المسلمين ، كيلا يذهب بأعمالكم قصاصا في القيامة ، ثم استعينوا على ذلك كله بالله حتى يتمها لكم .

قيل له : فكيف تصح للعبد هذه الأحوال ؟ قال :

لا بد له من عشرة أشياء ، يدع منها خمسا ويتمسك بخمس : يدع وساوس العدو ، ويتبع العقل فيما يزجره ، ويدع اهتمامه لأمر الدنيا ويتركها لأهلها ، ويهتم بالآخرة ، ويعين أهلها ، ويدع اتباعه الهوى ، ويتق الله على كل حال ، ويترك المعصية ، ويشغل بالطاعة ، ويدع الجهل والإقامة عليه حتى يحكم عمله ، ويطلب العلم ويعمل به .

ويقول سهل : لا يكون العبد مقبلا على معصية إلا وجميع حسناته ممزوجة بالهوى لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص من هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف . من نفسه مما يكرهه الله .

وقال : أول ما ينبغي للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المثونة ، والرفق في كل شيء ، والحذر أن يميل في الهوى ، أو مع الهوى أو إلى الهوى .

ثم لابد له من ثلاث أحوال آخر ، وفيها اكتساب العلم العالى : الحلم ، والتواضع ، والإنصاف .

ثم لابد له من ثلاثة آخر ، وفيها اكتساب المعرفة وأخلاق أهلها : السكينة ، والوقار ، والصيانة .

وقال : من أخلاق الإسلام والإيمان : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والنصيحة ، وفيها أحكام التعبد .

وقال : أركان الدين أربعة : الصدق ، واليقين ، والرضا ، والحب .

فعلمة الصدق : الصبر ، وعلمة اليقين : النصيحة ، وعلمة الرضا ترك الخلاف ، وعلمة الحب الإيثار ، والصبر يشهد للصدق . وقال : الجاهل ميت ، والناسى نائم ، والعاصى سكران ، والمصر ندمان .

وقال سهل : لا تفتش عن مساوىئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتن وابحث في أخلاق الإسلام ما حالك فيه حتى تسلم ويعظم قدره في نفسك وعندك .

وكان يقول : إذا قام العبد بما لله تعالى عليه ، فحقيق على الله أن يقوم بما كان العبد قائما به لنفسه وقال :

لا تفتش عن مساوئ الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن فتش عن أخلاق الإسلام وما حالك فيه حتى يعظم قدره في نفسك ، وتجتهد في التلبس بتلك الأخلاق .

وقال : اعلم أن الله تعالى أمانة في سمعك وبصرك ولسانك وفرجك ، وظاهرك ، وباطنك ، عرضها عليك ، فإن لم تحفظها خنت ، والله لا يحب الخائنين .

وقال : العاصون يعيشون في رحمة العلم ، والمطيعون يعيشون في رحمة القرب .

وقال في تفسير قوله تعالى :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » قال « العمل الصالح ما كان خاليا عن الرياء مقيدا بالسنة .

خاتمة

لقد أراد سهل أن يعود بفكرة العلم والعلماء إلى الجو الإيماني الصادق ، وحديثه عن العلم والعلماء يستأهل التسجيل .
إن خيار الناس ، فيما يرى ، العلماء الخائفون ، وخيار الخائفين المخلصون الذين وصلوا إخلاصهم بالموت ، رضى الله تعالى عنهم .
والعلم في الدين ليس أهواء ، ولا ابتداعاً ، ولا إختراعاً ، ولكنه اتباع ، ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » قال :
العلم الكتاب والاقتداء ، لا الخواطر المذمومة ، وكل علم لا يطلبه العبد من موضع الاقتداء صار وبالأعلى عليه ، لأنه يدعى به .
ومنح الله ومواهبه كثيرة ، ولكن :

ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يستزيد به افتقاراً إلى الله .
ويتحدث سهل عن الإخلاص في العلم وعن شكره فيقول :
الدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ،
والعمل كله هباء منثور ، إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه أنت منه
على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا .

أما شكر العلم والعمل ، وشكر العمل زيادة العلم ، فهو أبداً في هذا
وهذه حاله .

ويربط سهل برباط وثيق بين العلم والعمل فيقول بمناسبة قوله تعالى :

« وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » قال :
كل عالم أعطى علم الشر وليس هو مجانباً للشر فليس بعالم ، ومن
أعطى علم الطاعات وهو غير عامل بها فليس بعالم .
وكما للخمر سكر فإن للعلم سكرًا ؛ وقد دخل على سهل أبو حمزة
الصوفي فقال :

أين كنت يا أبا حمزة ؟ قال :
كنا عند فلان أخبرنا أن السكر أربعة .
فقال : أعرضها على .
فقال سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر
السلطنة ؛ فقال : وسكرتان لم يخبرك بهما ، فقال : ما هما ؟
فقال : سكر العالم إذا أحب الدنيا ، وسكر العابد إذا أحب أن
يشار إليه .

والعالم الرباني لا يخوض في دنيا الناس ؛ يقول سهل :
« وكل عالم خاض في الدنيا فلا تصغ لكلامه بل يتهم فيما يقول ،
لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .
وهذا الاتجاه بالعلم إلى جو العظة والعبرة والإخلاص والتجريد هو
الاتجاه الصادق .
وسهل رضى الله عنه ما كان عالماً فحسب ، وإنما كان مصلحاً
للعلم .

أما من ناحية علمه فإنه يمثل الطابع العام لعلوم الصوفية :
إن العلم في المجال الصوفي يدور حول القرآن الكريم والحديث النبوي
الشريف يدرسها في عمق ، وذلك ليأخذ منها الأساس الصادق
للقدوة والتأسي .

إن الصوفي يرى في رسول الله ﷺ الأسوة ، ويدرس كل ما يتصل
بحياته وبدعوته من كتب الأحاديث ، ومن كتب السيرة حتى يمكنه أن
يستجيب للقرآن الكريم في قوله تعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم
الآخر وذكر الله كثيراً » (١) .

أما القرآن الكريم فإنه نور الأنوار من اتصل به عن قرب مستجيباً
إلى هديه أشرق نوره في قلبه وفي بصيرته ، وهُدى إلى الصراط المستقيم .
وسهل رضى الله عنه لا يمل من ترداد ما يحث على الاقتداء ، وعلى
اتخاذ القرآن والسنة أساساً للسلوك وللأخلاق وللتنشيع وللعقيدة وللسير
إلى الله عن بصيرة .

وإذا أخذ الناس الذين في قلوبهم زيغ يبحثون في متشابه القرآن مما
يتصل بالذات أو بالقدر والجبر والاختيار ، فإن سهلاً يوجه التيار في
رفق وحكمة إلى الهداية الحققة .

والهداية الحققة هي أن تسير إلى الله من باب الذلة والانكسار ، من
باب الخشوع والخضوع ؛ . . . من باب القدوة والاتباع .

ومن دراستنا لسهل نرى أنه :

(١) الأحزاب : ٢١ .

درس واجتهد فى التفسير وفى السيرة وانتهى إلى هذه النفائس وفى التفسير وفى التوجيه على النسق النبوى .

وإذا كان العلم لا يطلب لذاته ، وإنما هو وسيلة تنتهى إلى العقيدة الصادقة والخلق الكريم والسلوك المستقيم والعمل والإخلاص فى كل ما بأتى الإنسان وما يدع ، فإن سهلاً انتهى من علمه إلى الثمار الصادقة للعلم ، وكان مثلاً كريماً للخلق الكريم .

والعلم والعمل هما القدر المشترك بين الصوفية جميعهم تقريباً .
وهذان العنصران ظاهران فى حياة سهل رضى الله عنه .

على أن الرسالة الكبرى للصوفية إنما هى الهداية إلى الله تعالى :
هداية الحيارى ، وهداية الشاكين ، وهداية العصاة ؛ إنهم يدعون إلى الله على بصيرة ويدعون إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويتجادلون بالتي هى أحسن ، إنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله .

وهذه الرسالة هى رسالة رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ ، وقام بها الخلفاء الراشدون من بعده والصحابة رضوان الله عليهم ، ولم تكن هناك إذ ذاك تفرقة بين عالم الدين . ورجل الدنيا . فقد جمع الصحابة رضى الله عنهم بين علماء الدين ورجال الأعمال فى وحدة واحدة منسجمة سخرت فيها جميع الأعمال لأن تكون فى سبيل الله ، وكما كان رسول الله ﷺ قدوة كان الصحابة رضى الله عنهم قدوة .

وحينما أصبحت الخلافة ملكاً عضوداً تخصص قوم فى علوم الدين فكان : العلماء .

ولقد أخلص العلماء وجههم لله ، لا ييغون من وراء ذلك مالا ولا جاهاً ولا ملذات فانية : إنهم لم يشركوا بالله أحداً في وجههم ، وكان المثل الكريم لهؤلاء إنما هم الأئمة الفقهاء والأئمة المحدثون من أمثال : مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة وسفيان الثوري وعشرات آخرين . كان هؤلاء يقومون على سلامة المجتمع في سلوكه وفي عقيدته وفي عبادته وكانوا يقومون بواجب النصح للرعية والراعي ، وكان الرعاة يتقبلون النصح أحياناً ويضيقون به أخرى ، ولكن العلماء سواء أضاق الرعاة بهم أم استجابوا وكانوا يمشون في طريق الهداية لا يصرفهم عن ذلك صارف .

ولكن الحكام وقد تخلصوا هم من عبء الدعوة والهداية حيث قام بها العلماء أخذوا يستولون على هؤلاء العلماء تدريجياً عن طريق الوظائف والجاه ، وتدرج هذا شيئاً فشيئاً فقد بدأ ضعف النفوس يسرون تحت راية الحكام ليصيبوا من حطام الدنيا ، وأخذت الدائرة تتسع شيئاً فشيئاً حتى أصبحت شاملة أو شبه شاملة .

وهنا ظهر في المجتمع طائفة الصوفية يقومون بما كان يقوم به الدعاة منذ بدء الإسلام .

إنهم أصبحوا خلفاء الرسول ﷺ في الدعوة ، وهؤلاء الخلفاء كانت نشأتهم ، وكان ميلادهم مع نشأة الإسلام وميلاده إلا أنه لم يكن هناك كلمة - بالنسبة للدعاة - أشرف من كلمة الصحابة ، هم كانت كلمة التابعين هي العلم الشريف لكل من تلاقى مع الصحابة : صحابة رسول الله ﷺ .

لقد ولد التصوف مع الإسلام ؛ والقرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ كلها أعلام هداية في طريق السالكين إلى الله سبحانه ، إنها أعلام هداية من حيث الأساس الذى يقوم عليه الطريق ، وأعلام هداية من حيث المعراج فى السلوك ، وإذا تأملت فى طريق الصوفية أوفى غايات الطريق فستجد أنه يقوم على الإسلام ويسير على هداية .

وقام الصوفية بدورهم خير قيام : لقد اهتدى بهم الكثيرون وأسلم على أيديهم أقطار بأكملها ، والإسلام فى أندونيسيا ، وفى هذه الأقطار البعيدة عن مركز الدعوة الإسلامية الأولى إنما هو من آثار الصوفية . إن الإسلام لم ينتشر بسيف ، وإنما انتشر بالدعوة بالحسنى ، وبالاقتناع ، وبالقناعة .

ولقد كان الصوفية بسمتهم الوقور ، وبالنور يشرق فى وجوههم ، وبالثقة التى فرضت نفسها فيهم يمثلون الخلافة لرسول الله ﷺ خير تمثيل ، واهتدى بهم من أحب الله له الهداية وانصرف عنهم من لم يكتب الله له السعادة .

وهذه الرسالة لا مناص من أن تؤسس على العلم ، ومن هنا كان الصوفية معينين بالعلم قرآناً وسنة وسيرة فكان فيهم المفسرون وكان فيهم المحدثون ، وكانوا علماء هداة مرشدين .

وسهل خير مثال لهذا الجانب العلمى ، ولكنه مثال من مثات أو من ألوف كلهم على نسقه يسير فى تيار الهداية مؤسساً ذلك على العلم . ولا بد فى الحياة من أناس تتوافر فيهم الثقة حتى يعطمن الناس إلى أن المثل الكريمة ما زالت موجودة ، وأن الخير ما زال باقياً ، وإلا شقى

الناس بعدم الثقة بعضهم في بعض ، وإذا كانت النفس الأمانة بالسوء تهدم بمحاول من الشر الثقة في النفوس فإن النفوس التي اطمأنت إلى الله ورضى الله عنها ، وأحبت الله ، وأحبها الله تعيد بناء الثقة ، وتعمل على نشر المثل الكريمة بسلوكها وسمتها ودعوتها .

وهذه المثل الكريمة ضرورة للمجتمع ، والتصوف إذن ليس ترفاً وإنما هو ضرورة لا يستقيم مجتمع خير بدونها لأنه لا يستقيم مجتمع بدون الإيمان بأن الخير لم يزل موجوداً .

ومحاربة التصوف إنما هي محاربة للمجتمع ومحاربة لبث الثقة في المجتمع .

ورضى الله عن الأعلام الهداة منذ ابتداء الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ورضى الله عنهم في جنة الخلد مأواهم ومستقرهم ، ورضى الله عنهم حيناً يتحقق واقعياً ما يقوله الرحمن الرحيم الودود :

« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » . .

وصلى الله وسلم وبارك على مشرق الهداية خير خلق الله وصفوته من عباده الذى قال له الحكيم العليم :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » .

والذى قال له : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١	الطريق في جو المراج	٧	مقدمة
١٠٢	استوى	١٥	الباب الأول - حياته
١٠٥	الذكر	٣٣	تقدير العلماء لسهل
١٠٨	الحمد	٣٦	سهل وبجالات علم التوحيد
١١٠	الشكر		
١١٥	الصبر	٤٥	الباب الثاني - الطريق
١١٩	الولاية		الفصل الأول :
١٢٤	الحب لله	٤٧	الطريق في جوه المادى
	الفصل السابع :		الفصل الثاني :
١٢٧	الطريق من :أبوية الدلاية :مات :مات	٥٩	الطريق في جو القدوة والتأسي
	الفصل الثامن :		الفصل الثالث :
	مآثرات عن الطريق في	٦٦	الطريق في جوه الأخلاقى
١٣٥	الحكم والمواعظ والنصائح ،التوجيهات		الفصل الرابع :
١٥٢	مخاتمة	٧٧	الطريق في جو التوبة
١٥٩	فهرس الكتاب		الفصل الخامس :
١٦٠	إلى السادة القراء	٨٣	الطريق في جو الإخلاص

Publithon Alexandria



0392615

منشورات المكتبة

طيدا - بيروت

٢٣٧٥٤٥ - بيروت ص.م